نوابغ الفكر العربي

٢٣



عبد الرحمن الكواكبي

١٨٥٤ — ١٩٠٢

بقلم الدكتور سامي الدهان

« رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامي
وعالم من علماء العمران وحكيم من حكماء
الاجتماع البشري »

رشيد رضا



دار المعارف بمصر

عبد الرحمن الكواكبي

نوابغ الفكر العربي

٢٣



عبد الرحمن الكواكبي

١٨٥٤ — ١٩٠٢

بقلم الدكتور سامي الدهان

« رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامي، وعالم من علماء العمران وحكيم من حكماء الاجتماع البشري »

رشيد رضا



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

الفصل الأول

عصر عبد الرحمن الكواكبي *

١ ـ الحالة السياسية

مرّت بالدولة الإسلامية عواصف كادت تذهب بها منذ نشأتها فقد دبّ فيها الخلاف الداخلى منذ القرون الأولى ، ثم ولدت فيها دويلات مزّقت شملها المجموع . وانصبّت عليها بعد ذلك ويلات أوربة حين غزتها من الغرب فاحتلت رقاعاً عزيزة منها ، وجاءتها زعازع المغول من الشرق فأحرقت الربوع ودمّرت الآثار ، ولكنها وقفت لذلك كله وقفة مذهلة مدهشة حافظت فيها على الدّين واللغة والقومية . فلما جاء الحكمُ العثمانىُ وبسط عليها ظله أطاعت وسكنت فى ظاهر الأمر ، حتى إذا تغلغل فى كيانها ودخل فى صميمها تخدّرت أعضاؤها زمناً غير قصير وأصبحت تعيش فى واقعها شرقية مسلمة ولكن نار العروبة كانت تحت الرماد تعيش خلال قرون ، فلما دخلت فى طور جديد واستيقظت على أنوار الغرب فى الثقافة والحرية ، ودوّت فى أسماعها هزة الثورات وتعاليم المساواة وأصوات الإخاء ، راحت تنتشى بعز العرب وكرامة القومية ، وتتغنّى بما لأمم أوربة من عيش جديد وحضارة جديدة . وهبّ الكتّاب والمفكرون فيها ينقلون إلى أقطار العرب هذه الألوان ، ويبعثون فيهم روح اليقظة فتسرى خفية إلى النفوس الكبيرة ، وتجوز الحدود والسدود على رغم العيون والرقباء فتستقر فى الصدور الواسعة من أبناء العرب فى مختلف عواصمهم ، عن سبيل أحرار الأتراك وأحرار الغربيين ؛ وساعدها سعى الممثلين السياسيين لأمم الغرب

* هذا العصر رسم خيوطه وخطوطه الكاتب الأديب الأستاذ عادل الغضبان حين ألف فى نجيب الحداد ، لسلسلة نوابغ الفكر العربى ، رقم ٣ ، فقد عاش الحداد معاصراً للكواكبى (١٨٦٧ – ١٨٩٩) ، ولم يترك الغضبان زيادة لمستزيد ، لذلك نحيل إليه فيما أغفلنا من أمور .

كروسيا وفرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وإنكلترا ودعايتهم الواسعة وعونهم المادىّ فراحت تثيرهم وتوقد فيهم نيران الحماسة وتبعث حبّ الحركة والانفلات .

وازداد اتصال الأحرار العرب بالغرب وتوسّعت مؤسساته فى الشرق وكثر انتقال بعضهم إلى مصر ، وأقبل دعاة الحرية والنهضة من زعماء الفكر فى الشرق وخاصة فى مصر ، يصفون آلام الشعوب العربية تحت وطأة العثمانيين ، ويرسمون الأخطار ويصوّرون الأمانى والآمال .

وقام بعض أصحاب الصحف يفسحون فى المجال لهذه الصيحات والمقالات فأصبحت الثورة تغلى فى كثير من النفوس ،واستجاب لها الأحرار فى سورية ولبنان لما كانتا عليه من ظلم الأتراك العثمانيين وجور حكامهم واستخفافهم بالشعوب المحكومة فقد ركب الولاة مراكب الرشوه واللّذة والمعاصى ، وحكموا بالجواسيس والعيون ، وتسلطوا على أموال التجار والفقراء ، وظلموا القانون ، وخرقوا الدستور . وتجاهلوا قيمة العرب فاخترعوا الألفاظ فى تحقيرهم وتهديدهم ، حتى شاع فى العرب أن الأمر صائر إلى قتل قوميتهم ، ومحو لغتهم ، وتشنيع تاريخهم ، وتلويث تراثهم ، وإفساد أخلاقهم ، والنيل من نبيّهم [١]. وأسرفوا فى سجنهم وتعذيب أحرارهم وإفقار شعوبهم حتى خُيّل للعرب أنهم أصبحوا موضع الجباية ومورد الرزق يدرّون الأخلاف على الدولة لتنقل إلى العاصمة العثمانية ومن فيها من حكام وولاة ومتنفذين . فاستجابت القلوب بسبب هذا كله إلى الناقدين وأصغت للمصلحين ، وراحت ترقب الخلاص وتنتظر الفرج على أيديهم ، وتتلقف آثارهم وتتبع مقالاتهم ، وترى فيهم موضع الأمل ومحط الرجاء ، وتعجب بشجاعتهم وجرأتهم وتضحياتهم ، فقد كان منهم فى كلّ قطر مشعل ينير ، وعلَم يخفق ، ففى الأفغان ظهر جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ١٨٩٧)

---

(١) فصل الأمر فى ذلك الشيخ كامل الغزى فى كتابه « نهر الذهب فى تاريخ حلب » ٣ / ٣٧٤ وما بعدها . ورسم ما كان من أمر العثمانيين وولاتهم فى حلب الشهباء مدينة الكواكبى ، وكان معاصراً له .

وفى مصر محمد عبده (١٨٤٩ـ١٩٠٥) وفى سورية كان عبد الرحمن الكواكبى (١٨٥٤ ـ ١٩٠٢) أحسوا بالحال التى آلت إليها الخلافة ، والوضع الذى انتهى إليه العالم الإسلامى ، ورأوا أن لابدّ من رابطة سياسية تُمسك بهذه الأمة العريقة وتُعيد إليها سمعتَها فى الدنيا ومكانتها بين الأمم . ولكنّ كلاًّ منهم نظر إلى العلاج والطريقة من زاويته الخاصة وثقافته الشخصية وتربيته ونشأته ، فكانت نظرياتٌ فى الخلافة الإسلامية جديرة بالتحليل والنظر والدرس[1] ، اشترك فيها الكواكبى بلسانه وبيانه فصاح صيحاته فى وجه العثمانيين الأتراك ، ودعا إلى رابطة للشعوب الإسلامية ، وقدر لها دستورها ونظامها .

٢ ـ الحالة الاجتماعية

تقلبت الأمة العربية خلال حضارتها الطويلة على نظم الحياة المختلفة ، فأخذت بأساليب الأمم المحتلة فى كثير من جوانبها ، وتحلّت بألوان العيش الرافهة على العصور ، ولكنها عاشت فيما يبدو على طبقات اجتماعية متباينة : فيها السلطان والأمراء والوزراء والوجهاء وعامة الشعب . وظلّت كذلك حتى كان أواخر القرن التاسع عشر ، حين اشتدّ التباين بين الحاكم والمحكوم ، وأصبح الأمر يدعو إلى النظر والتأمل والإصلاح ، وخاصة حين غلت المركزية وقامت الآستانة كمحجة المسلمين وموضع آمالهم ، وموطن الرئاسة والزعامة والعلم للدنيا الإسلامية ، فانتسب الناس إلى فئات مختلفة متباينة كذلك ، يرجون عندها

---

(١) عرض الأستاذ أحمد أمين فى كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » إلى هذه النظريات وقلب فيها وجوه النقد والنظر ، مما يحسن الرجوع إليه فى دراسة الآراء السياسية لعصر الكواكبى ، وكذلك تجب مطالعة « الخلافة أو الإمامة العظمى » لرشيد رضا ، مصر ١٣٤١ هـ وترجمة المستشرق هانرى لاووست وتعليقاته على الكتاب ، دمشق ١٩٣٨ .

الخير فى الحل والعقد ، من ولاة وزعماء ومتنفذين ورجال الدين . وطغت الفئة الأخيرة ومالت إلى استغلال مكانتها ونفوذها فكانت صوفية زائفة حيناً ، وكان أنصاف المتعلمين والمتعممين ، وكانت الزوايا والتكايا أحياناً . وأصبح التدين تجارة وزعامة ووساطة . فولدت البدع والخرافات والخزعبلات ، وضل الناس فى دروب الجهل والعقيدة لا يجدون السبيل الحق والطريق السوى .

فلما هبت رياح الغرب وعرف العقلاء حقيقة الأديان ، وعيش الغربيين وواقع الحريات ، مالوا إلى تقليد أوربة تقليداً أعمى ، فنزعوا إلى التفرنج والتفنن فى اللباس والرياش والمآكل ، وفشا فساد الأخلاق ، وكثر الاختلاط وعمت الرشوة والمحاباة . واستهان الناس بالمبادئ فى سبيل الوصول إلى الأهداف الزائلة ، فضجت الفئات الواعية والعقول السليمة والنفوس المثقفة وهى قليلة وهبت تنادى بتساوى الطبقات ، وفرض العدالة الاجتماعية ، ومحو الفقر والحاجة ، والأخذ بالنفوس إلى أن تتسامى عن الذل والضراعة والرشوة والمحاباة والتملق والكذب والرياء ، لعلها تصلح حال الرجل فى صناعته وزراعته ، وتبحث فى أرضه وملكيته ، معتمدة فى ذلك حيناً على نصوص الكتاب والسنة ، وأحياناً على كتب المصلحين من الغربيين مما تسرب إلى الشرق من بعض النوافذ . وقد أرادت أن تشرح الإسلام الصحيح وتعاليمه ، وأن تبين زيف الطرق والمذاهب المحدثة ونوع البدع والخرافات ، وأن تتحدث فى أمر المرأة وإصلاحها ورفع مستواها ، فالمرأة إنما هى ابنة ومربية وزوجة . وشريكة ومشيرة ، وهى نصف الأمة ولا يصلح نصف الأمة الثانى إلا بها .

ولكن الموضوع الذى كان يثير كبار العقلاء ويحرك الأدمغة الرفيعة هو جور الحكام العثمانيين ، واستئثارهم بالغنم ، ودفعهم الشعب المسكين إلى الغرم . فنهض فى الأمة العربية زعماء ينادون بالإصلاح ويطالبون بنزع الاستبداد ومحو الاستعباد والرق ، ويطمحون إلى عيش أسمى وحياة أرقى مما كان يعيش عليها الشعب العربى فطالبوا أن تفتح المدارس للعلم ، إذ كان الشعب على جهل فاضح

لا تكاد كثرته تفهم أو تقرأ أو تكتب وإنما تسير فى مسالك الحياة كما تسيّرها الأهواء، وألحّ المصلحون على أن تكثر المستشفيات لتداوى المرضى والزَّمْنَى [١] والمعلولين ، وتوفّر لهم العلاج ، وأن يقف أدعياء الدين عند حدود الدين الصحيح فلا يستغلون العامة ولا يستأثرون بأوقاتهم فى سبيل رسوم لا تنفع ووعظ لا يرفع ، وكلام لا يقع من الصدق . وطلبوا بعد ذلك كله أن ترقى الصنائع وأن يوفر الكساء والغطاء لهؤلاء المساكين الذين كانوا يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء ، فى حين يملك الأغنياء الأرضين الواسعة الشاسعة إرثاً من غير حق ، وتملكاً بغير سند ، وكان فى طليعة هؤلاء الزعماء المصلحين [٢] عبد الرحمن الكواكبى .

٣ ــ الحالة الثقافية

كان الشرق العربى فى أواخر القرن التاسع عشر على حال لا تحمد من ضعف الثقافة وضآلة عدد المدارس ، وضيق وسائل الطباعة والنشر ، فقد كانت الأفواه مكمومة ، والصحف قليلة لا تنشر إلاّ ما يراد منها أن تنشر ، ولا يطبع من الكتب إلاّ ما يخفّ خطره على المستبدّين من الحكام الولاة ، فكانت كتب الفقه والأوراد والأدعية تروج وحدها فى أنصاف المتعلمين ، ويشجّعها المتعممون . فلا يلمّ الناس بكتب الرياضيات والطبيعيات والفلسفة والحكمة والأخلاق ، ولا يقرءون كتب الحقوق والواجبات لأن ذلك يثير المشاكل النائمة ويحرك الأفكار الغافلة ، ويخلق المتاعب ، وينير العقول .

فلما قامت الإرساليات الأجنبية فى هذه الربوع حركت جوانب من البحث

---

(١) الزمنى : جمع زمين وهو المصاب بالزمانة أى العاهة .

(٢) ظهر فى هذا العصر كثير من الزعماء المصلحين تفرقوا فى البلاد الإسلامية ، فكان مدحت باشا وخير الدين التونسى وعبد الله النديم وأحمد خان والأفغانى ومحمد عبده ، مما تراه مفصلا فى كتاب « زعماء الإصلاح » لأحمد أمين ، فهو جليل مفيد فى هذا الباب .

جديدة ، ومسائل من الدرس كانت مجهولة فلامست عقول المتحررين وأيقظت النفوس الكبيرة ، فنشط العقلاء إلى العكوف عليها ومدارستها ونقلها ، فنشأت فئة قليلة تقرأ فى دقة ، وتفهم فى وعى جديد . وزادها ما نهضت به مصر على يد الأزهر وصحف المصريين فى مقالات جريئة وبحوث طريفة وقصائد قومية [1] تتعلق بالإنسان وكرامته ، والمواطن وحقوقه ، والعربى وحريته ، وتسربت هذه الصفحات سرًّا وخفية إلى الأيدى المرتعشة والقلوب الخائفة لأن السجن كان أقل عقاب لقراءة الآثار الخطيرة ، والنفى كان أقل جزاء لتملك هذه القنابل المحرقة . وقوّى ذلك ما كان من صلة الغرب بالشرق وطواف بعض العرب بعواصم الغرب ، وما كان ينشره ويحمله إلى العرب قناصل أوربة سعياً فى الإثارة وتأجيجاً لنار الثورة — كما قلنا — .

ونشأت فى سورية ولبنان صحف تكتب فى موضوعات جديدة فكانت تعمّر قليلا ثم تنطفئ ، وكانت تنقل إلى العرب كتب الغربيين ومسرحياتهم ورواياتهم وأدبهم وأخلاقهم ، ثم صاحبها انتشار المدارس وتقدمها ، فدعت إلى الإصلاح والحرية . وكان أن صدرت فى حلب جريدة « الشهباء » حرّر فيها ميخائيل الصقال [2] والكواكبى ثم عطّلت . وصدرت فيها كذلك جريدة « الاعتدال » بالتركية والعربية ولكن سراجها أطفئ كذلك فى مطلع حياتها ، فقد كانت كأختها حرّة الضمير تكتب فى حب الوطن وتنبّه على مواضع الخلل ، وكان يحررها

---

(١) ألف الأستاذ أنيس الخورى المقدسى بحوثاً نفيسة فى تصوير نزعات هذا العصر وانعكاساها فى الأدب وجمعها فى كتابه « الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث » وقد طبع فى جزءين ببيروت ١٩٥٢ ، يحسن الرجوع إليهما فى تفصيل الأمر والتوسع فى دراسة العصر .

(٢) أديب شاعر حلبى ابن العالم الشاعر أنطون الصقال ولد فى مالطة يوم كان أبوه نازلا فيها . اشتغل فى أول عهده بفن المحاماة ثم عاد إلى الاشتغال بالأدب فنزل مصر سنة ١٨٩٧ ونشر فيها مجلة « الأجيال » المصورة وكانت أول مجلة مصورة ظهرت فى العربية ثم رجع إلى حلب وعكف على التأليف ثم عاد إلى مصر وقفل بعد ذلك عائداً إلى وطنه . له ديوان شعر وكتب فى الأدب والتاريخ ، وقد توفى منذ سنوات عن شيخوخة صالحة (انظر ترجمته المفصلة فى كتاب « أدباء حلب ذوو الأثر فى القرن التاسع عشر » بقلم قسطاكى الحمصى) .

الكواكبي كذلك ويسعى فيها إلى جامعة إسلامية عربية قريبة مما سعى إليه المصلحون فى عصره .

وكان المرحوم مصطفى كامل فى مصر يعمل للوطن والحرية كذلك فيدوّى صوته فى مسرح زيزينا بالإسكندرية ، كما كان يدوّى صوت النائب الفرنسى فرانسو دلونكل والكاتبة الفرنسية مدام جوليات آدم ، إلى مقالات أحمد رضا بك صاحب مجلة « شوراى ملّت [١] » التى كانت تصدر فى القاهرة مطالبة بالدستور والحرية ، وكتابات أحرار السوريين واللبنانيين فى مصر والبلاد الأمريكية ينفخون كذلك فى بوق الحرية والدستور نفخات امتلأت بها جواء الشرق وآفاقه[٢] كالدكتور فارس نمر فى المقطم وسليم سركيس صاحب المشير[٣] والشيخ عبيد الله مبعوث آيدين وصاحب جريدة « العرب » التى كانت تصدر فى الآستانة ويحرر فيها معروف الرصافى .

وكانت هذه الأصوات تبلغ آذان المتحررين والمخلصين العاملين فى بعض الأقطار العربية فتثير فى النفوس الأمل وتبعث فى القلوب ريح الحرية والقومية ، ولكنها كانت قوية عظيمة فى القاهرة وخاصة بعد أن تحررت مصر من ظل العثمانيين ، فنهض إليها الأحرار من العرب ، ونزعوا فى اللجوء إلى حماها ، وكان منهم السيد عبد الرحمن الكواكبى الذى أصدر فيها مقالاته وبحوثه مدوّية ، ثم ظهرت فى كتابيه « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » .

---

(١) إبراهيم سليم النجار ، مجلة « الحديث » ١٩٤٠ ، ١٤ / ٤ .

(٢) إبراهيم سليم النجار ، مجلة « الحديث » ١٩٥١ ، ٢٥ / ١١٨

(٣) يقول إبراهيم سليم النجار فى المصدر نفسه : « غير أن الصحافة العربية الإسلامية كانت بعيدة عن مثل هذه النزعات ، فلا « المؤيد » ولا « اللواء » ولا « الأخبار » لصاحبها أمين الرافعى كانت تتعرض لمثل هذه المواضيع والأبحاث النارية » . وكننا سنرى أن « المؤيد » تصبح بعد قليل مسرحاً لقلم الكواكبى وموضوعاته الجريئة فى محاربة الاستبداد والاستعباد .

الفصل الثانى

عبد الرحمن الكواكبى فى عصره

١ – نسبه وآله

يرى المؤرخون[١] من آل الكواكبى أن نسب جدّهم لأبيهم يرقى إلى على ابن أبى طالب – رضى الله عنه – ويذكرون فى شجرة هذا النسب علَمين من أرْدبَيل[٢] ، هما صفىّ الدين الأردبيلى وصدر الدين الأردبيلى . ويقولون إنّ من أحفاد الشيخ صفى الدين الأردبيلى رجلاً يسمى (على سياه بوش) ، خرج إلى بلاد الروم ولما وصل إلى حلب بقى فيها ، وتزوج من حلبية ثم رجع إلى بلاده ، ومن ولده بيت الكواكبى . ومن أحفاد صفى الدين كذلك ظهر إسماعيل الصفوى الذى جلس فى تبريز على[٣] عرش السلطنة وأسّس أسرة الصفويين التى ظلت تحكم إيران قرابة مئة وأربعين عاماً . وقد اشتهرت الأسرة فيما نعلم بنشر العلم والأدب ، واهتمت برعاية المؤرخين والفقهاء والعلماء .

وذكر هؤلاء المؤرخون من آل الكواكبى كذلك أن نسبهم من جهة الأم يتصل بمحمد الباقر ابن على زين العابدين ابن الإمام السبط الشهيد الحسين ، وأن فى هذا النسب بنى الزهراء ، وجدّهم الشريف أبا محمد إبراهيم المنتقل من

---

(١) ألف حسن الكواكبى كتاباً فى ترجمة الأسرة «النقائح واللوائح من غرر المحاسن والمدائح» ونقل عنه المؤرخون بعده (انظر «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» لراغب الطباخ ٧/١١٠) .

(٢) أردبيل : من أشهر مدن أذربيجان بينها وبين بحر الخزر مسيرة يومين أغار عليها التتر فردهم أهلها مرتين ولكنهم افتتحوها فى المرة الثالثة ويقال إن أول من أنشأها فيروز الملك وينسب إليها خلق كثير من أهل العلم فى كل فن .

(٣) «تاريخ الأدب الفارسى» تأليف رضا زاده شفق ، ترجمة محمد موسى هنداوى ، مصر ١٩٤٧ ، ص ٢٠١ .

حران إلى حلب ، وقد مدحه أبو العلاء المعرى فى تاريخه وقصائده .

ولسنا فى حاجة إلى ذكر هؤلاء الأجداد من جهة الأب أو الأم ، وإعادة سردهم هنا ، ولكن نكتفى بأن نبرز ما كان لهم من رفعة النسب وسموّ الحسب فى التصاقهم بعلىّ بن أبى طالب وآل بيته ، وتشيّعهم فى إيران وتسنّمهم عرش الملك ، فهم فيما رأى مؤرخهم حسن الكواكبى (المتوفّى سنة ١٢٢٩ هـ) قد جمعوا المجد من أطرافه فى العلم والشهرة . وهم على ذلك نازحون طارئون قدموا حلب وسكنوها ، فكانوا أعلاماً فى الأدب والفقه والدّين ، لذلك كانت إليهم نقابة الأشراف فى حلب على توالى الأجيال .

ويبدو أن أول من اشتهر منهم بالكواكبى هو محمد أبو يحيى الكواكبى ابن صدر الدين الأردبيلى ، ونسبه كما رأينا إلى بيت الصفوىّ ، انتقل إلى حلب ولبث فيها . « وعرف بالكواكبى لاتصال أحد أسلافه بآل الكواكبى من جهة النساء المعروفين عندنا بعراقة النسب » كما يقول المؤرخ الأستاذ كامل الغزى فى مجلة الحديث .

وقال المؤرخون فيه إنه كان حنفيّاً ، يعرف من قبل بالبيرى نسبة إلى « البيرة» قرب حلب ، ثم عرف بالكواكبى لأنه كان مبدأ [1] أمره حدّاداً يعمل بالمسامير الكواكبية [2] . ثم فتح الله عليه فسلك طريق الصوفية وحصلت له شهرة زائدة حتى كانت الأمراء تأتى إلى بابه ، وربما رأوه فى خلال الذكر ، فلم يجسروا عليه ، ووقفوا وهو لا يهتزّ لهم حتى يتمّ ذكره ، وربما كان يسير فى طرقات حلب فيهتمّ الناس بتعظيمه وتقبيل يديه . وقد توفى الرجل سنة ٨٩٧ هـ . ودفن بجوار الجامع المعروف الآن بجامع الكواكبى بمحلة الجلّوم — وهى من أحياء حلب اليوم المشهورة — وجامعه يعرف بجامع أبى يحيى الكواكبى .

---

(١) ابن الحنبلى فى « در الحبب » ، مخطوطة باريس رقم ٢١٤٠ ، بالورقة ١٤٢ و — انظر إعلام النبلاء ٥/٣٣٦ .

(٢) فى المعاجم أن الكوكب هو المسمار أو بريق الحديد وتوقده جمعه الكواكب .

هذا هو جدّ هذه الأسرة الكواكبية المشهورة، ما يزال قبره فى الجامع[1] ، وفوقه القبة ، وقد رقد فى صحن الجامع أحفاده من آل الكواكبى ، وكلهم أعلام صلحاء وعبّاد ورِعون زهّاد ، سلكوا طريقه، وترجمت لهم كتب التاريخ[2] ، وذكرت ما كان لهم من شهرة فى الورع والزهد ، أقام أكثرهم الذكر فى زاوية جدّهم بالجامع فى الحىّ المذكور . وقرأ بعضهم الكتب المشهورة فى الحواشى والتعليقات . واشتهر منهم بالنظم والنثر والشعر والعفة والتقى ، وتولّى منهم القضاء والتدريس والفتيا فى حلب وإستانبول ، ونالوا الإجازات فى العلم ، فكلهم أهل فضل ورياسة ، ولهم طريقة معروفة أردبيلية[3] .

وقد مدح بعضهم الشعراء فأفاضوا فى المديح ، حتى كان لذلك كتاب جمعه أحد أبنائهم فى صدر القرن الثالث عشر للهجرة وسماه : « النقائح واللوائح من غرر المحاسن والمدائح » .

وهكذا عمل آل الكواكبى خلال أربعة قرون فى ميادين العلم والفقه ، فسطّروا صفحات لامعة تشهد بفضلهم وتمجّد ذكرهم على الأيام، حتى كان النصف الثانى من القرن الثالث عشر للهجرة حين ظهر أحمد بهائى الكواكبى الوالد الذى نترجم لابنه فى هذا الكتاب .

٢ ــ والداه

ولد أبوه أحمد بهائى ابن محمد بن مسعود الكواكبى سنة ١٢٤٥ هـ ، وتلقّى العلوم النقلية والعقلية على أشياخ عصره فى حلب الشهباء ، منهم الشيخ شريف الرزاز ، والشيخ عثمان الكردى ، والشيخ حسين البالى الغزّى . وكان يمضى

(١) قال أبو ذر فى « كنوز الذهب » : « إن هذا الجامع كان يعرف قديماً بمسجد ضبيان عمره سنة ٦٢٨ هـ » . وقد نقلْ ذلك عن ابن شداد الحلبى المتوفى ٦٧٤ هـ .

(٢) انظر تراجمهم فى « إعلام النبلاء » ٥/٣٦٥ ، ٦/١٩٦ ، ٢٢٦ ، ٣٧٣ .

(٣) « إعلام النبلاء » ٦/٤٦٦ .

معظم فراغه فى الزاوية الهلالية . فلما اشتدّ ساعده أقرأ فى المدرستين الكواكبية والشرفية وفى الجامع الأموى ، واشتهر بعلم الفرائض وتحرير الصكوك ، واشتغل بأمانة الفتوى مدة ، وعين عضواً فى مجلس إدارة الولاية .

وقال الأستاذ الغزى فيه[١] : « وكان الشيخ أحمد فى الغاية القصوى من الذكاء ودماثة الأخلاق وكرم السجايا ورقة الطباع ، وهو معدود من أجلّ علماء حلب فى العلوم الآلية ، وأدقهم نظراً فى مسائل الفتوى وباقى العلوم الدينية » .

وقال فيه كذلك : « إنه كان لا يقصده أحدٌ فى حاجة تُنال بجاه أو شفاعة إلاّ أجابه بقضائها بحيث لم يسمع منه ذو حاجة كلمة " لا " قط ؛ ثم يمشى بقضاء تلك الحاجة إلى أن يحصل المقصود ، وإلا اتضح لصاحبها العذر وانصرف عنه راضياً . وكان محبـًّا للصدقات الخفية كريم الطبع ، متفضلاً على الإخوان والخلاّن ، مع أنه ربما مضى عليه الشهر وهو خالٍ من النقود ، وقد استنيب فى قضاء حلب مدّة بعد إلحاح الوالى عليه ، ففرح به الناس ، وحسم أكثر دعاويهم صلحاً برضا الطّرفيْن » .

وقد وصفه الأستاذ الطباخ حين ترجم له[٢] فقال : « وكان ربعة ، أسمر اللون ، نحيف الجسم ، أسودَ العينين ، وَخـَطـَه الشيبُ فى أواخر عمره ، وكان رقيق الحاشية ، ظريف المحاضرة لا يملّ منه جليسه حسن الخلق جدًّا » . ثم قال : « وكان يعرف اللغة التركية إذ كان يندر من يعرفها بحلب خصوصاً من العلماء » .وقال المؤرخ إن أحمد الكواكبي كان وقفاً على الإصلاح بين الناس ، وكان متولياً على جامع جدّه أبى يحيى وخطيباً وإماماً فيه . وكانت وفاته عن ست وخمسين فى ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٢ م . ودُفن فى جامع جدّه ، وخلّف ولدين أحدهما السيد عبدالرحمن الكواكبي ولد سنة ١٢٧١ هـ وهو

---

(١) مجلة « الحديث » ، حلب ١٩٢٩ ، ٦/٤٠٥ .

(٢) « إعلام النبلاء » ٧/٤٠١ .

الذى وقفنا له هذا الكتاب ، وثانيهما السيد مسعود الكواكبى ولد سنة ١٢٨١ ، وكان من أعضاء مجلس النواب العثمانى ، وعضواً فى محكمة التمييز بدمشق ، وعضواً فى المجمع العلمى العربى بدمشق عُرف بالأدب والفقه ورقة الطبع ودقة الأحكام وخلّف أنجالاً ما يزالون شواهد على سموّ البيت الكواكبى من علم وأدب وشهرة[١].

ذلك والده بسطنا الأمر فيه لنذهب مع الذين يؤمنون بما للبيئة من أثر فى تنشئة الطفل ، يرون فيها تُربة يصلح الولد بصلاحها ويفسد بفسادها ، ويرث من خصائصها ومزاياها ما يقيم أمره ويمكّن له فى الدنيا ، فهو فى رأيهم صورة مصغّرة ، بل إنه غصن من شجرة ، وثمرة منها ، يُعطى الفرع ما يُعطى الأصل. وقد رأينا أن الأب كان عالماً وخطيباً وإماماً ، وقف على اللّغة التركية ، وقضى فى الناس بالعدل ، وأصلح بينهم فى سخاء ، فكان كريم اللسان عفّ اليد قويّ الجنان ثاقب الذهن ، وسنرى أن ابنه شابه أباه فأخذ منه كثيراً .

وأمّا والدته فهى السيدة عفيفة بنت مسعود آل النقيب ، وأبوها كان مفتى أنطاكية ، وأسرتها على نسب رفيع أشرنا إليه قبل قليل .

٣ ـ حياته

(١٢٧١ ـ ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م)

من هذين الأبوين الكريمين ولد عبد الرحمن بحلب فى ٢٣ شوّال سنة ١٢٧١ هـ ١٨٥٤ م كما ذكر ابنه الدكتور أسعد الكواكبى[٢] ـ فيما بعد ـ فقد صحح ما جاء فى الأوراق الرسمية التركية ، وقال : « إنّ والده قام بعملية تصحيح السنّ لدخول الانتخابات فى حلب ، فجعل ولادته آنذاك ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٨ م ليصبح سنّه مطابقاً لما تتطلبه عملية الانتخاب ، ولكنّ الواقع أن سنّه

---

(١) انظر ترجمة الرجل فى « مجلة المجمع العلمى العربى » بدمشق ١٩٣٠ ، ١٠/٤٤ ، وكلمة المرحوم الرئيس كرد على فى المذكرات ، وابنه الدكتور صلاح الدين الكواكبى رصيفنا فى المجمع العلمى بدمشق .

(٢) مجلة « الحديث » ، حلب ، سبتمبر ١٩٥٢ ، ص ٥٤٢ ـ ٥٥٤ .

كان أصغر بكثير » . ولكن هذه الأوراق الرسمية هى التى سارت بين الناس ، وأخذ بها صاحب « المنار » الأستاذ السيّد رشيد رضا[١] فعرّبها جرفيًّا عن التركية ، وكانت على نسختين مصدقتين ؛ الأولى وقعها الوالى عثمان نورى باشا الأعرج والثانية الوزير رائف باشا والى حلب . وعن هذه الأوراق[٢] نترجم للرجل ، فقد أوردت وظائفه جميعاً وحدّدت تواريخها على ضبط غير قليل ، فهى سجلٌ لهذا الموظف ترى فى سطورها مرآة حياته الرسمية سنة بعد سنة .

ودرج الطفل يحبو حتّى بلغ السادسة من عمره ، فتوفيت أمه سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩ ، وفقد بذلك ركناً ركيناً ، وحرم حناناً واسعاً لا يعوّض ، فكأنَّ الحياة ابتلته بآلامها منذ نعومة أظفاره ، فأرسله أبوه إلى خالته السيّدة صفية بنت مسعود النقيب بأنطاكية ، وحضنته هذه الخالة وهى مشهورة بين أترابها ، تجيد القراءة والكتابة والخط فى ذلك الزمان الذى ندر أن تجد كثيراً من الفحول يتمفون للمعرفة أو الثقافة ، وكانت على ذكاء واسع فلبث عندها ثلاث سنوات ، تعلّم خلالها اللغة التركية ، وتابع دروسه فى القراءة والكتابة .

وعاد بعد ذلك إلى حلب فى كفالة والده فَعُنِىَ به عناية بالغة ، وأرسله إلى مدرسة الشيخ طاهر الكلزى ، فى قاعة الصقال بحلب بجوار خان الوزير ، فتعلّم العلوم العربية والتركية والفارسية .

ولكنه لم يلبث أن سافر ثانية إلى أنطاكية سنة ١٢٨١ / ١٨٦٤ وقد بلغ الحادية عشرة من عمره ، وأصبح يدرك الأشياء وصورها إدراكاً جميلاً ، فتأثّر من غير شك بجمال هذه المدينة وفيها الشلالات والبساتين والحدائق الواسعة وأخصبها « الحربيات » وكانت مصطافاً للحلبيّين ، ومرتعاً يسرّحون فيه البصر ويرساون فيه النفس ، ويجلون به جفاف حلب وُعريها وظمأها ، فاتسع خيال

(١) « المنار » ٥/٢٣٧ وما يليها ، السبت ٧ يونيو سنة ١٩٠٢ .

(٢) أصدرت مجلة « الحديث » بحلب عدداً خاصاً فى ترجمته ، خصه ابنه الدكتور أسعد الكواكبى ببحث مطول نثبت منه سطور حياته من غير تردد ، فأهل مكة أدرى بشعابها .

الطفل لهذه المشاهد وغمرت نفسه مشاعر الرضا ، وغزت قلبه ألواح الجمال والجلال ، فنشأ على أفق واسع ونظرة رحبة تنفرج لفكر دقيق نيّر فى المستقبل ، وتحمل الأفكار العميقة ، ملء صدر يتنفس فى يسر وغبطة كما يتنفّس الأطفال فى سويسرة وغيرها من مسارح الجمال والفتنة .

وفى هذه المدينة داوم على مدرسة خصوصية من أساتيذها بعضُ أنسبائه لأمه العلامة عبد الرحمن العلبى ، عضو شورى الدولة، والسيد نجيب النقيب عمّ والدته ، وكلاهما مشهوران لعصرهما . وقد عين الخديو توفيق ثانيهما أستاذاً خاصًّا لابنه عباس حلمى ، فلم يجد فى مملكته مَنْ يتوفّر على التعليم مثله . فانظر أية رعاية ربانية كانت للطفل الناشئ فى تقلّبه بين أعطاف هذه الأيدى الرحيمة الكريمة العلمية : خالته ، ونسيبه ، وعمّ أمه .

ومكث الطفل سنة واحدة فى أنطاكية رجع بعدها إلى حلب وقد بلغ الثانية عشرة من عمره ، فأدخله والده فى المدرسة الكواكبية — وكان الأب مديراً لها ومدرساً — فتعلم فيها مبادئ الدين والعربية . وكان من أساتيذه فيها الشيخ عبد القادر الحبال(١) ، والشيخ محمد على الكحيل(٢) أمين الفتوى بحلب وغيرهما من فحول العلماء . وتلقّى العلوم العصرية على يد الأستاذ خورشيد ، وهو من أدباء الأتراك المشهورين ، فأتقن التركية والفارسية تكلماً وكتابة .

ولا شك فى أن الفتى كان يعالج الكتابة والقراءة ، ويجنح إلى العلوم الرياضية والطبيعية ، ويكثر من المطالعة والمراجعة ، وكانت صحف إستانبول تصل إلى حلب وفيها خير المترجمات عن الغرب ، والمترجم له قوىّ فى التركية ، حتى قيل إنه أصبح موسوعةً فى معارفها وكان ضليعاً فيها . فراح يعبّ منها حتى قوى عوده واستقام لسانه ، واتسع أفقه حين بلغ سنّ الشباب وزحف نحو العشرين من سنيه ، يعيش فى وسط ثقافى رفيع ، من حوله أبوه وأهله وهم علماء أدباء ، وصلحاء فقهاء . وعلى مقربة منه المدرسة الكواكبية وكانت مصنعاً لكثير

(١) انظر ترجمته الموجزة فى « إعلام النبلاء » للطباخ ٧/٣٩٨ .
(٢) انظر ترجمته كذلك فى المصدر المذكور ٧/٤١١ .

من شيوخ العصر تعلّموا فيها وأخذوا عن أساتيذها ، فسار على سنّة من قبله وبلغ إلى ما بلغوا إليه من ثقافة ورفعة وقوة . فما كاد يبلغ الثانية والعشرين من عمره حتى أصبح محرراً غير رسمى لجريدة « فرات » وهى الجريدة الرسمية التى كانت تصدرها الحكومة فى اللغتين العربية والتركية . ولهذه الجريدة تاريخ حافل ، فقد أسسها أحمد جودت باشا المؤرخ التركى الشهير سنة ١٨٦٧ للميلاد ، حين كان والياً على حلب وجعلها بعنوان « غدير الفرات » وظلت تصدر سنتين بهذا العنوان ، ثم حذفت كلمة غدير وأصبحت فرات فحسب تيمّناً بفيض النهر الذى عاش الحلبيّون قروناً ينتظرون قدومه إليهم[١] .

وظلت الجريدة أربعاً وأربعين سنة حتى سنة ١٩١١ تصدر فى قوة وإبداع حرّر فيها عبد الرحمن الكواكبى ، وكامل الغزى ، ومحمد الحنيفى ، وهم أعلام حلب لعصرهم ، فهى من الصحف الفريدة ولا يجرى فى ميدانها إلاّ فارس الحلبة .

وبعد عام أصبح محرراً رسميًّا لهذه الجريدة نفسها براتب شهرى قدره (٨٠٠ قرش) ثم راح ينشئ جريدة يحرّرها سنة ١٨٧٨ سماها « الشهباء »[٢] بالاشتراك مع هاشم العطار ، وهى أول جريدة عربية صدرت فى حلب . ويقول كامل الغزى : « إنّ هذه الصحيفة كانت أول معلن أذاع بين الناس فضل هذا العبقرى ، وكشف لهم عما كان منطوياً عليه من المنزلة الرفيعة فى عالم الأدب والسياسة . ولذا اغتبط الناس بهذه الصحيفة وأقبلوا عليها أيّما إقبال ، غير أنهم لسوء الحظّ لم يتمتعوا باستجلاء محاسن هذه البكر الوحيدة سوى أيام قليلة حتى فاجأها القدر بانقضاء الأجل[٣] » .

---

(١) تحققت هذه الأمنية بورود أنابيب من هذا النهر تسقى العطشى وتمسح الجفاف ، منذ عدة أعوام فحسب .

(٢) حرر فى هذه الجريدة الشاعر الأديب ميخائيل الصقال ، ويقول الطباخ إن الكواكبى أنشأها سنة ١٢٩٥/١٨٧٨ .

(٣) كامل الغزى ، مجلة « الحديث » ، حلب ١٩٢٩ ، ٦/٤٠٩ .

وكان كامل باشا القبرصى ، الصدر الأعظم المشهور ، والياً لحلب آنذاك يكره الصحافة والحرية معاً ، فعاجلها بالتعطيل ، ويرى الغزى أن منشأ ذلك تسرّع الشاب الكواكبي فى الإصلاح[1] ، ونقده الكثير الموجّه إلى أعمال الوالى وموظفى ولايته مشيراً من طرف خفىّ إلى استبداد السلطان عبد الحميد وأنانيته المفرطة فى تثبيت سلطانه ؛ فى حين كانت الصحف الأخرى التركية والعربية تكيل المديح للسلطان ، ويغالى محرروها فى الإغداق عليه بالألقاب والمدائح مما لم ينله قبله ملك أو سلطان . فهو عندهم شاهنشاه ملك الملوك ، وملجأ الخلافة وبانى الدنيا ، وظلّ الله فى الأرض ، والسلطان الأعظم ، والذات الأقدس ، وغيرها مما لا يطلق إلا على منشئ الكون وبارئ النسم .

وأغلقت الجريدة بعد صدور خمسة عشر عدداً منها . وأنشأ جريدة « الاعتدال[2] » سنة ١٨٧٩ وكانت بامتياز « سعيد بن على شريف » بالعربية والتركية ، فألغاها الوالى جميل باشا شيخ وزراءالدولة العثمانية فيما بعد كما ألغى سلفه كامل باشا الجريدة الأولى . وذلك لأن الشاب تطلّع إلى حرية قومه من خلال الأنهار التى كان يسوّدها فى الصحف ، ونادى بآراء كانت غريبة على مثله فأرادت السلطة العثمانية أن تقف هذا التيار ، وأن تحول دون جريانه ، فسدّت كلّ باب كان يفتحه ، وأوصدت كلّ سبيل كان يلجه ، لئلاّ يسير وراءه شبابٌ غيره ، فيصعب الرتق ، وتتفتح الأذهان لهذا اللون من التفكير . وقد ساخ الشاب خمس سنوات فى الصحافة الحلبيّة يكتب فى اللغتين حتى حسن إنشاؤه وسلم بيانه ، وقادت العبارة العربية فيه مقاداً تطلّع إليه كثير من الكتّاب باللغة والمستمسكين بالسياسة ، وهو أول من أنشأ جريدة فى الشهباء بعد الصحيفة الرسمية فكان أوّل صحافى حلبي يكتب فى هذه الأبواب .

ولما بلغ الشاب الخامسة والعشرين من عمره ، عيّن عضواً فخريّاً (بغير راتب)

---

(١) ويشاركه الطباخ فى رأيه .

(٢) الفيكونت فيليب دى طرازى ، « تاريخ الصحافة العربية » ، ٢٠١/٢ .

فى لجنتى المعارف والمالية فى ٩ آذار ١٨٧٩ ثمّ عين بعد عام واحد عضواً فخريًّا كذلك فى الأشغال العامة ثمّ محرراً للمقاولات ، وعين بعدها مأموراً للإجراء (رئيساً لقلم المحضرين) فى ولاية حلب ، ثمّ عضواً فخريًّا كذلك فى لجنة امتحان المحامين .

وبلغ التاسعة والعشرين من عمره ، فجعلته الحكومة مديراً فخريًّا لمطبعة الولاية الرسمية فى سنة ١٨٨١ (٢١ ربيع الأول ١٣٩٧ هـ) ثمّ رئيساً فخريًّا للجنة الأشغال العامة ، ثمّ عضواً فى محكمة التجارة بولاية حلب بأمر من وزارة العدلية ، ثمّ عاد مأموراً للإجراء فى حلب ١٨٨٦ (١٢٠٤ هـ) .

وهذه المراتب التى شغلها الشاب عجمت عوده ، ووقفته على أعمال الدولة فارتقى من عضو إلى رئيس فى كثير منها ، وتسلّم المناصب الدقيقة — كما نقول اليوم — ولا شك فى أنه كان فيها موضع الثقة والإعجاب لعلو ثقافته ، وسموّ نفسه ، وسعة مداركه وحبّه لبنى قومه ، وسعيه فى الإصلاح ، واعتقاده بأن الموظف ملك الدولة والأمة ، وهو أجيرٌ لها ، يعمل لخيرها ورفعتها وسعادتها فى وطنية صادقة وإخلاص خالص .

على أن هذا الثبات فى مبدئه ، وهذه الشجاعة فى ثورته ، نبّها أنظار السلطة إلى خطره ، فوقف له والى حلب جميل باشا بالمرصاد ، يراقب حركاته وخاصة حين علم أن جميع ما تسطّره صحف الآستانة وبيروت من مقالات الطعن والتنديد به مستمدٌّ من قلم السيد عبد الرحمن الكواكبى ، فلم يتحمل الكواكبى هذه المراقبة ، وأبت نفسه أن يصلح شأنه مع الوالى ، فاستقال آخر سنة ١٨٨٦ من وظيفته (مأمور الإجراء) ، وانفصل عن محكمة التجارة ، وعمد إلى فتح مكتب للمحاماة خاصّ به ، يُفتى فيه أصحاب الدعاوى ويسطّر اللوائح الاعتراضية ، ويحرّر معروضات المتظلّمين من الحكّام ، مما يقدّمه عادة أبناء الشعب إلى المراجع العليا ، ويفيد المراجعين من المحامين ويرشدهم فيما يشكل عليهم من أحكام الأنظمة والقوانين .

وهذا المكتب جاء ضِغْثاً على إبّالة[1] ، وأزعج الوالى كذلك ، لأنه أصبح ندوة يأوى إليها الأعداء والمتظلمون فيدلّهم الكواكبى على الطرق التى يتوصّلون بها إلى قهر الوالى والتخلص من ظلمه ويشجّعهم على رفع ظلاماتهم ، ويتولّى لهم بنفسه تحرير الكتب والشكاوى المرسلة مع البريد أو البرق .

واتّسع بذلك الخرق ووقع الوالى فى شرّ أعماله وجاءه من هذا المكتب ما لم يكن بحسبانه . وفى تلك الأثناء وقع بين جميل باشا وبين المستر هندرسون قنصل إنكلترة فى حلب نزاع عنيف على مسائل سياسية — كما يقول الغزى — وراح كلّ منهما يستعدى مرجعه على خصمه فتمّ الاتفاق بين « الباب العالى » وسفارة إنكلترة فى أن تنتدب السفارة أحد رجالها فى السفر إلى حلب للتحقيق فى الموضوع ، فحضر المندوب وباشر بحوثه سرّاً واستعان على استجلاء الحقيقة بالكواكبى[2] ، يجتمع به خفية ويُطلعه على الموضوع فى حقيقته حتى عاد المندوب باقتراح لعزل القنصل عن حلب .

وهنا كان الكواكبى نبيلاً صادقاً فى عداوته حين وقف إلى جانب الوالى ونصره على القنصل بالرغم من البغض الذى يكنّه للوالى . وكان الجواسيس وعيون الوالى يبلّغون رئيسهم خلاف الواقع ويوغرون صدره على الكواكبى ، حتى اشتد حنقه عليه وفكّر فى تدبير وسيلة لإهلاكه . فلمّا أحسّ بأنّ الكواكبى يقصد السفر إلى أنطاكية ومنها إلى إستانبول منعه من السَّفر ، ووضع الجواسيس على مكتبه يرقبون الداخل إليه والخارج منه ، ويتعقّبونه إذا خرج لا يكادون ينفكون عنه أينما حلّ وحيثما سار .

ولكنّ جماعة من أعيان حلب ووجهائها مِمّن نكبهم الوالى لم ينقطعوا عنه ، وإنما كانوا يزورونه سرّاً ، يشكون له حالتهم وخاصة آل كتخدا ، فقد كان

---

(١) الضغث : قبضة حشيش يختلط فيها الرطب باليابس . والإبالة : الحزمة من الحشيش والحطب وهو مثل يضرب لاختلاط الأمر وازدياده سوءاً .

(٢) الغزى ، مجلة « الحديث » ١٩٢٩ ، ٦/٤١١ .

الوالى يضايقهم ويعرقل أعمالهم ويسلّط عليهم مزارعيهم فى ضياعهم ذلك لأنهم أبـَوْا أن يدفعوا له شيئاً من تركة زعيمهم مصطفى آغا كتخدا ، وهذا الشىء هو خمسة آلاف ليرة عثمانية ذهباً فحسب ، طلبها باسم إعانة . فامتنعوا عن الرشوة ، ولما أيقن أنهم مصرّون على الامتناع شرع فى إهانتهم وإثارة المزارعين عليهم ، وحبس أحدَ عظمائهم ، فأعانهم الكواكبى فى رفع ظلامتهم إلى الباب العالى ومقام السلطنة ، فورد الأمر بإطلاق سراح كبيرهم ، واشتدّ ساعدهم بعد هذا النصر ، وانضمّ إليهم جماعة من أعيان حلب وفيهم نافع الجابرى ، الذى لُقِّب بشيخ المبعوثان واشتهر بمجاهرته العداء للسلطان ، حين استكثر رزق السلطان من بيت المال . وكذلك نصرى الأنطاكى الحلبى وهو يعدّ مع نافع الجابرى من أكبر الدهاة فى حلب(١) .

وكان هؤلاء جميعاً يوالون شكاواهم من الوالى إلى المقامات العليا فى السلطة العثمانية على كتب ورسائل بالتركية يحرّرها السيّد الكواكبى بلهجة بارعة مثيرة يهتزّ لها عظماء الدولة وأكابر رجالها وتتأثّر منها عظمة ذلك السلطان القاهر الذى كان لا يهاب الملوك ولا يحسب حساباً لأحد .

وكان الوالى محبوباً عند السلطان عبد الحميد ، يحتلّ عنده مكانةً لا يدانيه فيها أحد ، لما يقدّم من هدايا وافرة ، وتحف ثمينة كان يفصدها من دم الشعب ، فيغمره السلطان بالرتب العالية والأوسمة السامية . ولكن السلطان مع هذا استمع إلى شكاوى الحلبيين بفضل ذكاء الكواكبى وكتاباته ونظر فى ظلامتهم مكرهاً ، فأرسل حكماً ينظر فى أحوالهم ويقف على حقيقة الوضع .

وفى سنة ١٨٨٥ (٢٣ ذى الحجة ١٣٠٣ هـ) وصل هذا الحكم إلى حلب وهو « صاحب بك » رئيس دائرة المحاكمات فى شورى الدولة وقد أصبح بعد ذلك شيخ الإسلام ، ومعه لجنة من المحققين فأقاموا فى حلب ما ينيف على الشهرين ينظرون فى الشكاوى المقدمة من خصوم الوالى وكلها محرّرة بقلم الكواكبى .

---

(١) الغزى ، « الحديث » ١٩٢٩ ، ٤١٣/٦ .

وصادف خلال ذلك أن اعتدى محامٍ أرمنى « زيرون جقماقجيان » على الوالى فى ساحة باب الفرج ، (يوم ٢٦ صفر ١٣٠٤ / ١٨٨٦) وأطلق عليه عياراً من مسدسه ، ولكنه أخطأه فقبض عليه . وأُرسل إلى السجن وحُكم عليه بالحبس خمس عشرة سنة . فاستغلّ الوالى هذه الحادثة ، وأمر بالقبض على الكواكبي والوجهاء الذين ذكرنا ، واتّهمهم بأنهم دبّروا لاغتياله وقتله ، وقبض عليهم فى منازلهم ليلاً . وأودعهم السجن ، وضيّق عليهم الخناق ، وأبقاهم فيه بضعة عشر يوماً ، وقرر إبعادهم ، منتظراً سفر الحكَم وجنته .

ولكن الحكم « صاحب بك » علم بذلك فأبرق إلى السلطان فى الأمر يشير إلى غليان المدينة والشعب ، وتفاقم الحال ، فصدر الأمر بتنحية الوالى « جميل باشا » وإرساله والياً إلى الحجاز وإخلاء سبيل السجناء وعيّن الوزير عثمان باشا الأعرج والياً لحلب — وكان مُقْعَداً يحمل على كرسى — فوصل اليها ١٨٨٦ م (١٩ ربيع الأول ١٣٠٤ هـ) .

ويختلف الغزى فى تأريخ هذه الفترة من حياة الكواكبي [1] عما جاء فى الأوراق الرسمية مما ترجمته « المنار » . فهو يرى أنّ الوالى عثمان باشا عيّن الكواكبي رئيساً للبلدية ثمّ عزله بعد أسبوع . والأوراق الرسمية ترى أن الوالى كاد للكواكبي كذلك ودسّ عليه وأحاله إلى المحاكمة وسجنه ثانية ثمّ برأته المحكمة [2] .

وتقول هذه الأوراق إنّه فى سنة ١٨٩٢ م (٢٣ رجب ١٣١٠ هـ) عيّن الكواكبي رئيساً للبلدية فى حلب وقد بلغ الأربعين من العمر . فتفتقت عبقريته فى الإصلاح وجهوده فى الإنشاء والتعمير وقام للعمل كأحسن من يتسلّم هذا المنصب ، فرسم خطة واسعة جبارة تُعيي كلّ من جاء بعده فى اللّحاق به ، ذلك أنه فكر فى كلّ شىء ونهض لكل خير .

---

(١) الغزى ، « الحديث » ١٩٢٩ ، ٦ / ٤١٨ .

(٢) يرى الغزى أن الوالى الذى اتّهمه بإحداث ثورة بين الأرمن والمسلمين هو عارف باشا ، فقد قبض عليه وحاكمه وحكم عليه بالإعدام ثم سيق إلى بيروت بناء على طلبه فبرئ .

ومن أعماله أنه جعل سلاسل على الطرق تمنع الجمال التى كانت تسدّ الطرقات من دخول المدينة ، وخاصة السوق الكبيرة فيها ، وبه زهاء أربعة آلاف دكان ، فكانت الجمال تمشى فيه مُوقَرة[1] بالبضائع التجارية لتفرغ حمولتها فى الخانات والقياسر الداخلة فى السوق تزاحم المارة الذين تغصّ بهم السوق وربما داست بعضهم فقتلته. فوضع الحواجز على المداخل، واختار أماكن خاصة خارج البلد تأوى إليها ، وهنا يقول الغزى إنّ التجار الحلبيين هاجوا وماجوا وقامت قيامتهم لأنهم كانوا يضطرون إلى دفع الأجور ثانية إلى محالهم، وطلبوا عزل الكواكبي.

ومهما يكن من أمر فإن المصادر بين أيدينا تشير إلى مشاريع الرجل الكثيرة وتعدّدها ، ومنها أنه فكر فى إنشاء مرفأ للسويدية وجرّ خطٍّ حديدى منها إلى حلب . وسعى فى جلب نهر الساجور قرب مدينة عينتاب إلى مدينة الشهباء . كما طلب امتيازاً بنقل عين البليعة من أرمناز إلى إدلب ، فقد كانت هذه العين تصنع المستنقعات ، وتولّد البعوض ، وتعين على الأمراض والأوبئة .

ونهض الكواكبي لإنارة المدن بالكهرباء فى حلب وفى أطرافها بيرجك ومرعش وأورفة — وكانت تابعة لها آنذاك — وذلك بواسطة شلاّل يحدثه من نهر العاصى فى محل « المضيق » بالقرب من دركوش التابعة لجسر الشغور . وقام بتجفيف أراضى العمق ، وتأميم الريجى واستخراج معدن النحاس من أورفة — وكانت تابعة لحلب كذلك — وسنّ مشاريع كثيرة لهذه المدن الملحقة بحلب تضيق السطور عن سردها واستيعابها .

ويذكر الغزى [2] أن عثمان باشا ولى حلب ثانية فى سنة ١٨٩٢ / ١٣١٠ فعين الكواكبي رئيساً لغرفة التجارة مع رئاسة المصرف الزراعى فأصلح شؤون الغرفة وأظهر كيانها ، وكانت من قبل اسماً بغير مسمًّى. ووضع لهذه الغرفة جدولاً إحصائيًّا كما نضع اليوم ، يشهد بأنّ الرجل كان من أحذق المختصين

---

(١) موقرة : مثقلة .

(٢) كامل الغزى ، مجلة « الحديث » ١٩٢٩ ، ٦/٤٤٦ .

فى زمانه معرفة فى فنون الاقتصاد ومسائل العمران . وقد نشر الغزى فى كتابه[١] صورة عن هذا الجدول ، ليستشهد به كمثل رائع لعبقرية الكواكبى .

ويضيف الغزى أنّ السيد عبد الرحمن استقال من رئاسة غرفة التجارة وسافر إلى إستانبول قصد السياحة ، وانزوى فى أحد خاناتها ولم يشأ أن يتعرّف بأحد من عظمائها ، وكأنّه لم يقصد من هذه السياحة إلا دراسة طبائع الاستبداد من مدرسته الكبرى قصر البلاط السلطانى ، المعروف باسم « يلدز »[٢] ، فهو أعظم معهد تلقى فيه دروس هذا الفنّ العظيم . ولكنّ شهرة الرجل على انزوائه أشاعت خبر قدومه بواسطة المتجسسين إلى حضرة أبى الهدى الصيّادى[٣] فبعث إليه جماعة من حاشيته ونقلوه من الخان إلى منزل أبى الهدى فأظهر الاغتباط بقدومه ، وأحلّه فى منزله ، ولعلّ هذا الالتفات كان من السلطان نفسه . وبعد أن أقام فى إستانبول بضعة أشهر قفل راجعاً إلى حلب[٤] .

وعاد الرجل فالتزم من إدارة الريجى (شركة انحصار الدخان) جميع مداخيلها على أن يكون مفوضاً من قبلها فى كلّ ما يعمل . وعقد لذلك شركة يسهم فيها الناس ، فأقبلوا عليها بالاشتراك لفرط ثقة الشعب به ، وتسلّم الإدارة وطرد جميع من لا يعجبه فيها ، وتهافت الناس على شراء تبغه لجودته ورخصه ، وكان الأمل وطيداً بأن يربح أرباحاً طائلة ، ولكنّ السلطة عاكسته فسبّب قيام الأرمن فى بلدة « الزيتون » بمشاغبات ومذابح فكسدت بضاعة الدخان وخسر السيد عبد الرحمن بهذا الالتزام ، وشغب عليه العامة من أعدائه .

---

(١) « نهر الذهب فى تاريخ مملكة حلب » بالجزء الأول .

(٢) وردت « يلدز » هذه فى مطلع القصيدة التى نظمها أحمد شوقى بعد خلع السلطان عبد الحميد وقال فيه :

سل يلدزاً ذات القصور   هل جاءها نبأ البدور

(٣) كتب الأستاذ أحمد أمين فى وصف الصيادى سطوراً مفيدة فى كتابه « زعماء الإصلاح » ص ٢٤٣ فارجع إليه .

(٤) الغزى مجلة « الحديث » ٦/٤٤٦ .

وفى سنة ١٨٩٤ (٢٩ ربيع الأول ١٣١٢ هـ) جاء أمر من المشيخة الإسلامية إلى قاضى حلب بأن يستخدم السيد عبد الرحمن عنده بوظيفة رئيس كتاب للمحكمة الشرعية فى حلب ، فأنفق على المحكمة من ماله فى السجوف والأستار ، ومنع اختلاط النساء بالرجال ، وجعل لكلّ مكاناً ينتظر فيه دوره ، ورتّب الأوقات ، ونظم الدفاتر والسجلات ، وبقى فى هذه الوظيفة — كما يقول الغزى — مدة تزيد على السنتين . ثمّ تألب عليه الحسّاد والأعداء والغوغاء ، فاتفق القاضى مع الوالى على تنحيته ، وعيّن مكانه السيد كامل الغزى ، برضى من الكواكبى نفسه[1] .

وُعيّن بعدها رئيساً للجنة البيع فى الأراضى الأميرية ثمّ رئيساً لغرفة التجارة بحلب . وقد أظهر خلال هذه المناصب والمراتب كفاية فى الإدارة وتعففاً عن المال ، وإخلاصاً للمصلحة ، وحبّاً للشعب ودفعاً للظلم وثورة على الاستبداد ، ونقضاً لأحكام الفوضى والرشوة ، فهزّ الحكام الذين كانوا يرون فى الشعب مطيّة لشهواتهم ، وموضعاً للاستغلال والرشوة وجلب المال ، فتألموا لوجوده وغضبوا لصراحته ومساعيه فى تبصير الشعب بآفاتهم ، فحرّضوا الأشرار عليه وأوعز بعضهم إلى جماعة من الأرمن أن يغتصبوا أراضى مزرعته ، واعتدوا عليه بإيعاز من الوالى وتدبير من أنصاره ، فضاقت به حلب وانقبضت نفسه ، ففكر فى وسيلة يتخلّص بها من هذا الجوّ الذى أصبح خانقاً لا يطاق .

ويقول الغزى إنّ شيخ الإسلام جمال الدين وجّه عليه نيابة قضاء راشيا[2] ، ولكنه استقلّها وبقى فى حلب مدة ، ثم أظهر أنه يريد السفر إلى إستانبول ليستبدل بنيابة راشيا غيرها . وقبل سفره بيوم واحد زار صديقه كامل

---

(١) الغزى « الحديث » ، ٤٤٨/٦ .

(٢) إن صاحب « المنار » يختلف عن الغزى فى كثير من مواقع هذه الترجمة كما رأينا ، فهو يأخذ عن الأوراق الرسمية ، والغزى معاصر له بحلب مرافق له فى حركاته وسكناته ، فنحن نوفق بين آرائهما جهد الطاقة . وهنا يقول رشيد رضا إن الكواكبى رغب فى أن يكون قاضياً للشرع فى راشيا ، وترى أن الغزى مخالف لذلك .

الغزى وودّعه وأخبره أنه عازم فى غده على السفر إلى إستانبول ولكن الغزى يقول لنا : « وكنت عالماً بكتابه جمعية أم القرى ، وقد شعرتُ منه العزم على طبعه ، فوقع فى نفسى أنه سيعرج على مصر لطبعه ونشره ، إذ لا يمكنه أن يطبعه فى غيرها . وحذرته من ذلك وقلت له إياك يا أخى والسفر إلى مصر فإنك متى دخلتها تعذّر عليك الرجوع إلى وطنك ، لأنك تعدّ فى الحال من الطائفة المعروفة باسم « جون ترك » لا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة ، لما اشتهرت وعرفت به من شدّة العارضة وانتقاد الأحوال الحاضرة ، فقال لم أعزم إلا على السفر إلى إستانبول للغرض الذى ذكرتُه لك . ثمّ ودعنى ومضى ، وأنا أسأل الله أن يرعاه بعين رعايته وأن يجعل التوفيق رائده والنجاح مرشده وقائده . وكانت مبارحته حلب فى أوائل سنة ١٣١٦ ﻫ » .

وهكذا كتم عبد الرحمن الكواكبى خبر سفره إلى مصر حتى على أعزّ إخوانه وأصدقائه ، وغادر سورية فى ١٨٩٩ (٢٢ رجب ١٣١٦ ﻫ) وهو فى السابعة والأربعين من عمره ، وخلص نجيًّا من الظلم والاستبداد ، ولسنا ندرى هل رحل ابنه السيد كاظم[1] معه أو تأخر عنه ولحق به ، فالدكتور أسعد ابنه الذى كتب فيه وفى ترجمته لم يثر هذه الناحية ولم يعرها التفاتاً .

* * *

ويقول الغزى : « وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوماً لم نشعر إلا وصدى مقالاته فى صحف مصر ، وأخذت جريدة المؤيد تنشر له تفرقة « كتاب طبائع الاستبداد » الذى لم يطلعنا عليه مطلقاً بخلاف كتاب جمعية أم القرى فقد أطلعنا عليه مراراً . ثمّ إنّه طبع الكتابين المذكورين ، وقام لهما فى « المابين » السلطانى ضجة عظيمة ، وصدرت إرادة السلطان بمنع دخولهما إلى الممالك العثمانية ، بيد أنهما رغماً عن ذلك كله وصلا إلى حلب على صورة خفيّة وقرأناهما فى سمرنا المرة بعد المرة .

وبلغنا أنه بعد دخوله إلى مصر بأيام قلائل التفّ حول جماعة من أدباء

---

(١) ذلك أننا رأينا السيد كاظم مع أبيه بمصر من غير أن نعرف زمان قدومه إليه ، انظر ص ٣١ الآتية .

الأتراك يزعمون أنهم من طائفة « جون ترك » وما هم فى الحقيقة إلاّ جواسيس يرقبون حركاته وسكناته ويكتبون بها إلى المابين » .

ولقى عبد الرحمن الكواكبى فى مصر إخواناً وأصدقاء من السوريين هربوا قبله ، وكانوا يعملون لحرية العرب واستقلالهم ، فانضمّ إليهم ، وألفت المودّة بينهم ، وقامت الصُّحْبة واللقاء فى القاهرة كأحسن ما يصل بين الرجل وأخيه . وكانوا يجتمعون كلّ مساء فى مقهى « سپلندد بار » بالقاهرة. ومنهم الشيخ رشيد رضا[١] ، ومحمد كرد على ، وإبراهيم سليم النجار ، وطاهر الجزائرى ، وعبد القادر المغربى ، ورفيق العظم ، وعبد الحميد الزهراوى ، وبعض الصحفيين. . . وكلهم مشهورون فى البلاغة والبيان والكتابة والفكر ، عملوا فى القطر المصرى ، فأرسلوا مقالاتهم فى الصحافة صرخات مدوّية فى سبيل كرامة الفرد وعزة العربى .

وسكن الكواكبى فى مصر ، بشارع الإمام الحسين ، بالقرب من الأزهر ، وراح يقرأ ويحرر وينشر حتى عُرف فى مصر واشتهر أمره ، وخاصة عندما نشر كتابه « أم القرى » وقد ألّفه حين كان بحلب وبيّضه له ولده « أسعد» . ثم ازدادت شهرته وذاع صيته حين نشر فى جريدة « المؤيد » مقالات عن الاستبداد ، بغير توقيع ، فكان يبدو مفكراً عظيما ومصلحاً كبيراً حتى لقد اشتبه على المثقفين أمره فظنوا أنه يأخذ حرفيًّا من روسو ، فلما عرفوا أنه أبو عُذْر ذاك الكلام [٢] صاحوا : إنّ الكواكبى معجزة الكتّاب السياسيين لعصره بمصر ، وتسامعوا به فازدادوا له إجلالاً وإكباراً .

وكان الخديو عباس الثانى يتوق إلى الخلافة ، فأرسل فى طلب الكواكبى — كما قيل — ليقوم بالدعاية لقاء مرتب شهرى قدره خمسون جنيهاً مصريا[٣] ،

---

(١) يقول إبراهيم سليم النجار (الحديث ١٩٤٠/٥) : « اتصل المرحوم الكواكبى بالمرحوم على يوسف صاحب المؤيد على يد السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ، فتمكنت بينهما روابط الصداقة والود . فكنا نجتمع فى كل مساء فى حلقتنا المعروفة فى القاهرة » .

(٢) أبو عذره : صاحبه .

(٣) مجلة « الحديث » ، ١٩٥١/١٢٠ .

وليسعى لدى الشيوخ وعربان الإمارات بتوقيع عرائض يبايعون فيها الخديو عباساً بالخلافة. وقيل إنّ الكواكبي قبل ذلك فسافر فى أنحاء الشرق سنة ١٩٠١ ، وقد جاوز التاسعة والأربعين من العمر ، وأوغل فى أواسط جزيرة العرب على متون الجمال [١] ثلاثين يوماً ونيّفاً ، فقطع صحراء الدّهناء فى اليمن [٢] ، وتحوّل إلى الهند فشرقى أفريقيا ، وطاف مصر والسودان وزنجبار والحبشة وسواحل أفريقية الشرقية والغربية ، وسواحل المحيط الهندى ، ووصل إلى كراتشى وبومباى على سفينة إيطالية حربية حملته بتوصية من وكيل إيطاليا السياسى فى مسقط ، فطافت به سواحل العرب . وعاد من هذه الرحلة بمعلومات وافرة [٣] عن حالة البلاد الزراعية والمعدنية ، حتى إنه استحضر نماذج المعادن من تلك الأصقاع . ودام الأمر ستة أشهر ، فيما قالوا ، عاد بعدها الكواكبى إلى القاهرة ، فأقام هادئاً من غير عمل يسدّ به نفقته ، وكانت فى نفسه رحلة أخرى يتمّ بها معارفه ومشاهداته ، وهى الرحلة إلى الغرب ، ولكن هذه الأمنية لم تتحقق ، ذلك لأنه انتقل إلى ربه بعد ثلاثة أشهر من عودته إلى مصر .

وهكذا لبث الرجل فى مصر قرابة عامين عُرف فيهما بسعة العلم وغزارة المادة ، فالتفّ حوله الأصدقاء والمخلصون ، وأكبروا فيه خدمة الوطن والعمل للأمة العربية ، ذلك لأنه قضى معظم أيامه فى الوظائف بحلب ، وقاسى ما قاسى من وشايات الأدنياء ودسائس المغرضين فعاش كما عاش المصلحون فى نضال وتضحيات ، لعله يحقق أمانيه الواسعة التى كانت قريبة من أمانىّ السيد جمال الدين الأفغانى ، ولكن المنية بالمرصاد للقلوب الكبيرة .

---

(١) « الهلال » ٢٩/٩٩٦ ، سنة ١٩٠٢ .

(٢) يقول الغزى إنه جاءه كتاب من قنصل إيطاليا فى حديدة باليمن يذكر فيه أنه اجتمع بالسيد عبد الرحمن الكواكبى ، والقنصل حلبى هو السيد فرديناند بن ميخائيل صولا الحلبى كان تلميذاً للغز .

(٣) كان فى الظن أن ينشر الكواكبى خبر رحلته فى مقال أو كتاب ، ولكن المنية عاجلته عن تسطير ذلك .

وفى مساء الخميس ١٤ يونية ١٩٠٢ (الموافق ٥ ربيع الأول ١٣٢٠ هـ) جلس فى مقهى يلدز قرب حديقة الأزبكية إلى أصحابه وأصدقائه ، وفيهم السيد رشيد رضا ، والأستاذ محمد كرد على ، وإبرهيم سليم النجار[١] ، وشرب قهوة مُرّة وبعد نصف ساعة أحسّ بألم فى أمعائه فقام للحال ، وقصد مع ابنه السيد كاظم فى عربة « حنطور » إلى الدار وظلّ يقىء حتى قارب الليل منتصفه ، فأصيب بنوبة قلبية ضعيفة ، ثمّ عاودته بعد ساعة ، فأحسّ ابنه بالخطر ، وهبّ يستدعى أقرب طبيب من المحلّة ، ولما عاد صحبة الطبيب وجد أباه قد فارق الحياة ، بعد أن طوى فيها خمسين عاماً كانت من أقصر الأعوام لهذا المجاهد العظيم والمفكر الكبير .

وسرى الخبر صباح الجمعة[٢] فى مدينة القاهرة ، فأمر الخديو عباس أن يدفن الكواكبى على نفقته الخاصة ، وأن يعجَّل بدفنه ، وأرسل مندوباً عنه لتشييعه ، ودُفن فى قرافة باب الوزير فى سفح المقطم واحتفل له السيّد على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » بثلاث ليال أحضر فيها القراء[٣] .

ومنذ خمس عشرة سنة نقلت مصلحة التنظيم المصرية رفاته باحتفال دينى إلى مقبرة خاصة ببعض مشاهير الرجال ، وتقع هذه المقبرة فى نهاية شارع العفيفى بمنطقة باب الوزير . وكُتب اسمه وتاريخُ وفاته وتاريخُ نقله على صفيحة من المرمر ، كما كُتب أيضاً عليها بيتا شاعر النيل اللذان نوردهما بعد قليل[٤] .

---

(١) مجلة « الحديث » ١٩٤٠ ، ٦/١٤ .

(٢) يقول الغزى فى مجلة « الحديث » ٦/٤٤٩ : « وكأن وفاته كانت منتظرة لأنها لم يمض عليها يوم أو بعض يوم إلا وقد اتصلت بمسامع السلطان عبد الحميد ، وعلى الفور أصدر إرادته إلى السيد عبد القادر القبانى صاحب جريدة « ثمرات الفنون » التى كانت تصدر فى مدينة بيروت لأن يهبط سريعاً ويقصد محل إقامة السيد ، ويحرز جميع ما يجده من الأوراق ويرسلها إلى المابين » .

(٣) الغزى فى مجلة « الحديث » ٦/٤٥٠ .

(٤) الدكتور محمد أحمد خلف الله . « الكواكبى حياته وآراؤه » ، مصر ١٩٥٦ ، ص ١٨ (عن مجلة الحديث ١٩٥٢ ، ٢٦/٥٥٤ بقلم ابنه الدكتور أسعد الكواكبى) .

وشاع فى كثير من الأوساط أن الرجل قضى مسموماً[1] ، كما شاع مثل ذلك عن موت جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

وقد نُقش على قبره بيتان من الشعر نظمهما حافظ إبرهيم فيه وهما :

هُنا رجُلُ الدُّنْيا هُنا مَهْبِطُ التقَى ... هُنا خَيْرُ مظلوم هُنا خَيْرُ كاتبِ

قِفُوا واقْرَءُوا أُمَّ الكتاب وسَلِّموا ... عليه فهذا القبرُ قَبرُ الكواكبى

وقد رثاه الكتاب والمفكرون والشعراء وبكوه بكاء مرًّا ، فصدرت صحف العصر تنعاه للعالم العربى والإسلامى ، كجريدة اللواء ، والمؤيد ، والقاهرة ، والرقيب ، والأهرام ، ومجلتى المقتطف والهلال . وكلها تضرب على وتر واحد فى بيان فضله ووصف الخسارة فى فقده ، ورثاه مصطفى صادق الرافعى بقصيدة طويلة قال فيها :

سَلُوا حامليه هَلْ رَأَوْا حول نَعْشِه ... ملائكةً من حارب حلف حاربِ

وهل حملوا التَّقوى إلى حفرة الثرى ... وساروا بذاك الطود فوق المناكبِ

وهل أغمدوا فى قبره صارماً إذا ... تجرّد راع الشرق أهل المغاربِ

فكم هزّه الإسلام فى وجه حادث ... فهز صقيل الحدّ عضب المضاربِ

أرى حسَراتٍ فى النفوس تهافتَتْ ... لها قطع الأحشاء من كُلّ جانبِ

وكتبتِ فيه المجلات والصحف فصولاً طوالاً رسمت حياته ونضاله ، وما كان له من أفكار جريئة وصيحات مدوّية ، وعلم واسع ومعرفة عميقة فى الاجتماع والقانون، وأشادت بقلمه النيّر وأسلوبه البديع ، فقد كان يحمل مشعل الإصلاح والحرية بيد لا تكلّ ولا تهن ، كما حمله زعماء الشرق العربى

---

(١) « تاريخ الشيخ محمد عبده » للأستاذ رشيد رضا ١/٩١ فى الحديث عن الأفغانى : « فشاع فى كثير من البلاد أنه مات مسموماً كما شاع مثل ذلك فى موت الأستاذ الإمام السيد عبد الرحمن الكواكبى » . ويقول محمد لطفى جمعة ، فى مجلة « الحديث » ١٩٣٧ ، ٦٥٢ : « إن الكواكبى ذهب ضحية ذبحة صدرية » . مكذباً هذه الاشاعة . وينقل الغزى عن ابن خالة له كان فى مصر أن الكواكبى دعى إلى الإسكندرية عند الخديو وعاد باليوم الثانى فأحس بالوجع ، « الحديث » ٦/٤٥٠ .

لعصره ، وكان سيفاً مشهوراً على أعداء الحرية والأمة العربية ، لم يغمد الموت منه إلا اللسان الذى يتكلم والجنان الذى ينبض أما آراؤه وأفكاره وعباراته فهى ما تزال فى سمع الأحرار والكتاب والمؤلفين وعشاق المبادئ السامية من كلّ قطر وصقع فى مشرق الأرض ومغربها . ولم تقف الأقلام منذ وفاته عن الحديث فيه بالعربية وغير العربية . وما تزال العقول متعطشة إلى بحوث فيه ، وما انفكّ القراء ينتظرون له ترجمة تفى بحقه كما وفى بحقّ الفكر الحرّ والعقل النزيه . ولذلك كثرت فيه المقالات وتجمعت حتّى بلغت صفحات يُعييها العد ، عددنا بعضها فى آخر هذه الصّفحات إعلاناً بفضلها وإشارة إلى يدها ، معتذرين عن النسيان والسهو فهذا جهد المقل .

وكيف يستطيع قلم أن يحصى مآثره ، ويعدّد مناقبه ، ويلم بآرائه ويلحق بالآفاق التى حلّق فيها وهو يعلم أن صاحب الترجمة حلّق فى كلّ سماء ، وأوغل فى كلّ موضوع ، وسما على كلّ ذروة .

٤ ـ صورته الجسمانية والنفسية

وصفه ابنه الدكتور أسعد فقال : « كان ربعة إلى الطول أقرب . قوىّ البنية ، صحيح الجسم ، عصبىّ المزاج بتأنّ ، أشهل العينين ، أزجّ الحواجب ، أبيض اللون ، واسع الفم ، عريض الصدر ، أسود شعر الرأس والذقن ، متأنقاً فى لباسه ، يتكلم بجهر هادئ وسلاسة وابتسام يحسن السباحة والصيد والفروسية »(١)

وقال فيه الأستاذ كامل الغزى : « كان مربوع القامة ، حنطى اللون ، مستدير الوجه ، خفيف العارضين ، أقنى الأنف ، واسع الجبين ذا عينين زرقاوين ، معتدل المقلة لا غائرها ولا جاحظها ، معتدل فتحة الفم ، أزجّ

(١) « الحديث » ، ١٩٥٢ ، ٢٦/٥٥٠ .

الحاجبين ، صغير الأطراف ، معتدل الجسم بين السمن والهزال ، أسود الشعر ، قد وخطه الشيب حين فارق حلب إلى جهة مصر[١] » .

وعرفه إبرهيم سليم النجار فوصفه[٢] قائلا : « كان الكواكبى ربع القامة تميل إلى الطول قليلا ، أبيض الوجه بياضاً مشرباً بشىء قليل من الحمرة شأن سكان البلاد الباردة ، معمّ الرأس ، وقد أحاط خديه بلحية قصيرة كانت كالإطار لوجهه ، مدّ فيها الشيب خيوطه » .

وقال فيه الأستاذ محمد كرد على[٣] : « رجل سيماء الفضل فى وجهه ، ودلائل سعة العلم فى حديثه ، لم تتح لى معاشرته إلاّ برهة وجيزة ، لكن الفضل لا يخفى » ، ثم قال : « كان كبيراً فى عقله ، كبيراً فى همّته ، كبيراً فى علمه ، وكان خلاّباً للألباب إذا ضمّك وإياه نادٍ لا تريد فراقه من بعد . . . وكانت عليه سيماء الكآبة مما منى به . مع تمسكه بالإسلام ، لم يكن متعصباً ، يأنس بمجلسه المسلم والمسيحى واليهودى على السواء ، لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كلّ رابطة[٤] » .

كان عبد الرحمن الكواكبى رفيقاً بالفقراء شفيقاً عليهم ، كثير الحدب على مصالحهم ، حتى سُمّى فى حلب بأبى الضعفاء ، بل كانوا يدعونه أباهم . وكان يقف من أعدائه موقف المنصف العاقل ، فقد نُقل إلينا أن الشيخ أبا الهدى الصيّادى كان من أعدائه ، وقيل إن السبب فى ذلك إباء الكواكبى فى أن يصدّق على نسب الشيخ أبى الهدى ، وقد أصبح الشيخ نقيب أشراف حلب وكانت النقابة فى آل الكواكبى ، فلما سافر عبد الرحمن إلى مصر كان يُثنى على الصيادى ويجد فيه الصفات الحسنة كالمروءة والكرم والذكاء والثبات ،

---

(١) « الحديث » ١٩٢٩ ، ٣/٤٠٦ .
(٢) « الحديث » ، ١٩٥١/١١٨ .
(٣) « المقتطف » ١٩٠٢ .
(٤) « الهلال » سنة ١٩٠٢ ، ٢٩/٩٩٦ .

وقلما كان يخوض فى انتقاده إلا مع الخواص الذين يعرفون الحقائق ، فكانت عداوتهما عداوة العقلاء ، على ما بينهما[١] .

وجاء فى « الرائد المصرى » أنه كان له فى بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهاره لرؤية مصالح الناس ويبعث إلى المحاكم من يأمنهم من أصحابه ليدافعوا عن المظلومين والمستضعفين[٢] .

وجاء فى « المقتطف »[٣] أنّ الكواكبى كان « يقول الحقّ ولو على نفسه ، ومن كان هذا حاله يقاسى الأمرّين ، ولا يهدأ له بال فكان ينصح بعضهم بالرجوع عن الجور والعسف ، فحنقوا عليه من جرّاء ذلك ، وتواطأ بعض العمّال مع الأعيان عليه ، وساموه من ضروب التنكيل ألواناً فصبر على ما أصابه ، مما يصيب فى العادة المنورين العقلاء فى البلاد الشرقية » .

ونُقل إلينا من صفاته أنه ما توانى فى أمر بدأ فيه ولا تضجر ولا تململ ، وكان رحب الصدر عاقلاً يخاطب الناس على قدر عقولهم ؛ « فهو سياسى محنك مع الساسة ، وعمرانى اجتماعى مع علماء العمران ، وعالم دينى مع علماء الدّين ، وتاجر مع التجار ، وزارع مع الزرّاع ، وصانع مع الصناع ، وعامل مع العمال ، وكبير مع الكبراء ، بحيث كان الناظر إليه لأول وهلة يقرأ فى جبهته أمارات العقل والخبرة الطويلة والعلم الوافر[٤] » . ونقلت « المقتطف » أنه كان واسع المادة ، بعيد غور العقل « يتكلم عن رويـّة ولا ينطق عن هوى » .

وقال فيه الأستاذ أحمد أمين [٥] : « مؤدب اللسان فلا تؤخذ عليه هفوة ، يزن الكلمة قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً ، حتى لو ألقى عليه السلام لفكر فى الإجابة ، متزّن فى حديثه ، إذا قاطعه أحد سكت وانتظر حتى يتمّ حديثه ،

---

(١) « المنار » ٥/٢٧٨ .

(٢) « الهلال » ٢٩/٩٩٦ ، سنة ١٩٠٢ .

(٣) « المقتطف » سنة ١٩٠٢ ، ٢٧/٦٢٣ .

(٤) المصدر السابق بالصفحة نفسها .

(٥) « فيض الخاطر » ٦/١٧٩ ، ثم « زعماء الإصلاح » ص ٢٥٣ .

ثم يصل ما انقطع من كلامه ، فيؤدب بذلك محدثه ، نزيه النفس لا يخدعها مطمع ولا يغريها منصب ، شجاع فيما يقول ويفعل ، مهما جرت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشريد » .

وكان الكواكبي فيما يصفه الأستاذ الغزى كريم اليد لا قيمة للمال عنده ، ولوعاً بالتفضل على أقرانه وخلانه ، يأنف من الكذب والتدليس والغيبة ، والنميمة ، ويأبى الخضوع لأهل المجد الباطل . وكان لا يرى هدفاً يصوّب إليه سهام الطعن والتنديد غير أعاظم الرجال كالولاة والمتصرفين الذين ساءت سيرتهم وقبحت أعمالهم ، وهو يعتقد بأن الإصلاح يجب أن يبدأ بالرأس ، فإذا تم صلاحه تبعه الجسد فصلح كله[1] .

وكان يقول بالطفرة ، ويعتقد نجاحها إذا قرنت بالحزم والعزم والثبات ، وكان جريئاً فى اقتحام المخاطر والتعرض للمهالك حتى ليرمى بالتهوّر . وقد قال فيه أحد أصدقائه إنّ السيد عبد الرحمن مجموعة محاسن ولا عيب فيه سوى هاتين الخلتين : القول بالطفرة والجرأة المفرطة ، وهذا ما كدّر عليه موارد عيشه ، فقضى حياته يتجرّع صاب[2] المصائب . فكان طموحاً للمعالى يثب إليها وثباً دون تدرج — كما يقول الغزى — وكان جدّيًّا يكره المزاح واللعب والتلهى ، لا يطرب بالتغنى ، ولا تميل نفسه إلى مجالس اللهو والطرب . وقد قال مرة لجلسائه : هل الطرب بالغناء إلا وهم وضعف مزاج وإضاعة وقت فيما لا يجدى[3] .

ويقول فى طباعه السيد إبرهيم سليم النجار[4] : « وكان فى نحو الخمسين

---

(١) وفى هذا المعنى يقول شاعر حلبى من مواطنى الكواكبى هو الخورى نقولاوس الصائغ :

كثر العثار بعثرة الرؤساء وغوى الصغار بغرة الكبراء

لما رأيت الرأس وهو مهشم أيقنت منه تهشم الأعضاء

(٢) الصاب : المر .

(٣) « الحديث » ١٩٢٩ ، كامل الغزى ٦/٤٠٨ .

(٤) مجلة « الحديث » ١٩٥١/١١٨ .

من سنيه غير أنه كان كبير النشاط ، سريع الحركة شديد العزم ، يتكلّم بشىء من الشدة والحزم ، ولو لم يكن شيخاً ديّناً لكان قائد جيش فاتح. فلقد كان فى الحقيقة ثوريًّا بروحه وميوله ، وكثيراً ما كان يقول لى : « لوملكتُ جيشاً لقلبتُ حكومة عبد الحميد فى أربع وعشرين ساعة » .

٥ ـ تأثره وتأثيره

ولد عبد الرحمن الكواكبى فى بيت عريق بنسبه ، كما رأينا ، يعتز بأصالته وطيب أرومته ، ويفخر بتقاليده القديمة من عكوف على العلوم ومدارسة الفقه والدين ، وتعلّق بالتصوف. ودرج منذ صباه فى أحضان خالة ذكية أشدّ الذكاء ، واسعة الفهم ، عميقة الإدراك ، تُجيد القراءة والكتابة باللغتين العربية والتركية ، فأخذ يسمع ما لم يسمع صبىّ مثله فى بلده إلاّ نادراً. ونشأ فى طفولته على أيدى أساتيذ يثقفونه بالعربية والتركية والفارسية وأمور الدّين ، فنهل من ينابيعهم ما وسع الطفل الناشئ أن ينهل ، وسرّح نظره فى جمال الطبيعة بأنطاكية ومفاتنها فأحبت نفسه الخير والبركة والنعيم ، وألفت روحه الشفقة والحنان ، وأحبّ أخاه الإنسان ، وجهل البغض والحقد والضغينة ، لأن كلّ ما حوله كان يوحى إليه بحبّ العقل والفهم والجمال . فما كان ينتقل من بيت أبيه وفيه العلماء والشيوخ والصلحاء ورجال الدين المخلصون إلا إلى المدرسة الكواكبية وفيها الأوراق والكتب والدروس والمحاضرات ، فأحبّ المطالعة والعلم والبحث ، وساعده على ذلك ثقافة وجدّ . فهو قد أخذ من اللغات الشرقية بنصيب وافر ، واستراح إلى أسرة معروفة فى الكرامة والمكانة .

فلمّا شبّ كانت الجرائد التركية تتجمع حوله تصل من الآستانة وفيها مقالات كبار المحررين والعلماء ، يترجمون عن اللغات الأوربية ، وينقلون

عن أوسع المصادر ، فأخذ يقرأ ويقرأ حتى عشق الكتابة ، ومال إلى التحرير لعله ينفّس عن صدر واسع امتلأ بأحدث الآراء وأنفس القصص والتواريخ والعلوم . وكان أكثر الشباب حوله فى بلده يغطّون فى جهل مطبق فرضه الفقر والحاجة وقلة المدارس وضآلة المدرسين ، فأحبّ أن ينقل إلى هؤلاء ما يرى وأن يترجم لهم ما قرأ ، وأن يُعمل ذهنه الوقّاد المشتعل فيما قرأ وما سمع ، فرغب فى أن يحرّر فى الصحف .

وكان له أن يشترك فى جريدة رسمية للحكومة ، ثمّ فى جريدة غير رسمية ، يحرّر باللغتين فى اندفاع وحميّة ، ولكنه فى مقاطعة تابعة للدّولة العثمانية لا يجوز فيها ما يروج فى العاصمة العلية ، لأن الحاكم يرضى لقومه ما لا يرضى للمحكوم فى بلده ، فتلفتت الأنظار إليه وتنبّه الحكام العثمانيون إلى قلمه ومباحثه ، فنالته أعين الحسّاد من أقرانه وضغينة الولاة فى زمانه ، وسعوا جميعاً إلى وقف هذا السيل قبل أن يُغرق البلد بالإشعاع والنور والحرية ، وحالوا دونه بالتهديد والوعيد ، وهو وحده فى ميدان واسع لا يجد فيه نصيراً إلا عصبة من أولى العزم والحزم كانت ضئيلة مبغَّضة إلى ولاة الأمر .

فلما مال إلى الوظائف والمناصب يصلح فيها بيديه وعقله ما عجز أن يقوله بقلمه وقفوا له ثانية ، لأنه وحده كذلك فى غمرة من المستخدمين المأجورين يجدون عند السلطان رزقهم ، ويرون فيهم سيّدهم ، تأثر بهذا الضيق وشعر بالجور والاستبداد لأنه يريد أن يقول فلا يباح له ، ويريد أن يعمل فلا يتاح له . وآمن أن لا فلاح لهذه الأمة العربية إلا بالحرية فنشأت فى نفسه كراهية الاستبداد ، وَوطّنَ النفس على أن يقول فى هذا الاستبداد وأن يجد الطريق فى الخلاص منه . وساءه أن الشعب العربى مكبّل بأغلال السادة فى الآستانة ، فحزم أمره على التفكير فى جمع شمله ليكون قوة هائلة ترهب المستبدّين وتنتج الخير لهذا الشعب المتفرق فى أرجاء الأرض . وزاده السفر إيماناً بهذه القوة حين رأى الجهل فى ممالك المسلمين ، وعرف أنهم يعيشون حياة الاستبداد والرقّ ،

وتفتحت عيناه على نور عظيم كان يشرق فى نفسه ، ذلك هو السعى إلى توحيد الأمة الإسلامية ونصرتها وتثقيفها وتعليمها . فصاح صيحاته المدوية سرًّا فى بلده . وقاوم المستبدين فى حلب ، فلما أتيح له أن يهرب صاح علناً وكتب فيما فكر فيه خلال ثلاثين عاماً ، وكان لصوته أثر كبير فى الإصلاح ، وأصبح فى الزعماء المفكرين الذين خطّوا طريق الفكر والحرية فى الشرق العربى .

وقد كان لكتاباته فى العرب ما كان لجمال الدين الأفغانى من إيضاح لموقف الأمة الإسلامية وبسط لحالها من الداء والأمراض ووصف لعلاج سريع للخلاص مما هى فيه . وأصبحت مقالاته فى كتابيه ذخراً للمتطلعين إلى الحرية فتأثر بها جيله وانتفع بها ، ومشى إلى طريق الكرامة والاستقلال . فكانت المشعل الذى هدى والمعول الذى هدم واليد التى بنت والخطة التى نهجها المصلحون من بعده ، فأسقطت الجور وندّدت بالظلم وغدت بعد موته صفحات يأخذ بها المخلصون فى قيادة الأمم يقرءونها كما يقرءون كتب المصلحين المخلصين .

وأمّا أسلوبه فى الكتابة فقد سار فى نهج جديد تأثر به مَنْ بعده ، وتخلّص من الأساليب العقيمة التى كانت قبله ، وأصبح للصحافة على يديه ويدى زملائه المعاصرين دستوراً ومثالاً يحتذونه إلى اليوم . فهو أستاذ هذا الجيل فى الحرية والكتابة ، وستبقى بحوثه جديدة ما دام فى العالم مَنْ يؤمن بكرامة الإنسان وعزة الفرد ، وموت الاستبداد والطغيان .

الفصل الثالث

جوانب عبد الرحمن الكواكبي

١ ــ آثار الرجل

بدأ السيد عبد الرحمن الكواكبي يرسل مقالاته فى الصحف منذ مطلع شبابه كما رأينا ، وعرفنا أنه شرع فى الثانية والعشرين يحرر فى الجريدة الرسمية « فرات » ، باللغتين العربية والتركية ، وكانت عزيزة الجانب عظيمة المكانة . ثم راح يكتب فى جريدة « الشهباء » « فالاعتدال » . ولا شك فى أنها كانت كلها فى أمور البلد وفى إصلاحه ، أو فى الثقافة والعلم والدين والفقه كما يتراءى لشاب فى مثل سنه . وهذه المقالات لم تُجمع إلى اليوم ، ولم يَقُم لها ناشر يعرضُ علينا ما كان من قلم الشّاب فى هذه الفترة ، لننهض لها بالتحليل ونقول كلمتنا فى أسلوبها وبيانها ، أو فى غرضها ومضمونها . ذلك لأنها تفرقت فى خزائن الموسرين والعلماء ، ذكر الأستاذ الطباخ أنه رأى عدداً منها فى خزانة الوجيه السيد أسعد العنتابى بحلب . ولا شك فى أن دراستها من خلال الصحف تُعين على تفهم الخطوات الأولى لتفكير هذا الشاب وأسلوبه وكتابته خلال خمس سنين من حياته ، وترشد إلى بدء آثاره الفكرية وصيحاته الإصلاحية ، وما تَبدّل منها وما تغيّر على مرّ السنين ، فالكاتب فى تطوّر مستمرّ ما دام فى نزعة ثورية وحماسة فكرية كما كان الكواكبى .

ولكننا فقدنا هذه النصوص الأولى فعجزنا عن بسط الرأى فيها ، ووقفنا دون دراسة التطوّر الأدبى والفكرى فى إنتاج هذا الكاتب ، وبلوغه المرتبة التى وصل إليها . ونحن فى هذا على أسف مرّ حين ننقص صفحاتٍ من نموه وتدرّجه لأننا حُرمنا من التقرب نحو الكمال فى بسط أمره كما يبسط الدارسون المتعمقون أثرَ

الكتّاب والمفكرين . والذنب فى ذلك يعود إلى السلطان الغاشم الذى أراد أن يُسكت هذا اللسان وأن يحرم الفكر آثاره وثماره فى الشباب ، فأتلفها وسرقها . وقد قضى الرجل قرابة عشرين عاماً بعد ذلك تقرّب فيها نحو الأربعين من عمره لم نقف له خلالها على مقالة ولا رسالة منذ وقف عن النشر فى الصحف الحلبيّة . فقد حسب الناس أنه انصرف إلى العمل والإدارة ، وتعلّق بالمنصب والوظيفة سعياً وراء إصلاح ما بين يديه من أمور وما تحت حكمه من موظفين ، ولعله أرسل فى صحف مصر أو بيروت مقالات مغفلة من توقيعه نشرت آنذاك فى غيبة عن الرقيب والسلطان ، ضاعت ولم تصل إلينا ، ولم يَهدنا دارس إلى موضعها ، فجهلنا مكانها من الفكر والأدب كذلك .

ولكننا عرفنا من قول المؤرخ الأستاذ كامل الغزى ، وكان مرافقاً له وصديقاً حميماً ودوداً ، أن السيد الكواكبى أطلعه مراراً قبل أن يهجر الشام إلى مصر على كتابه « جمعية أم القرى » وأن صديقه الغزى كان يعرف أن الكتاب جدير بالنشر وأنه يلحق بصاحبه الأذى إذا ما نشر ؛ لذلك خاف عليه أن يطبعه فى مصر لما وقف عليه من آرائه وكلامه . ثم يضيف المؤرخ الغزى[1] أنّ صاحبه الكواكبى ما نزل أرض مصر ١٨٩٩ م حتى نشر مقالات متفرقة لكتابه طبائع الاستبداد فقد وصلت إلى العالم العربى بعد بضعة عشر يوماً من وصوله . وذكر الغزى أنه لم يطلعه على هذا الكتاب مطلقاً بخلاف الكتاب السابق .

وهذا يدلّنا على أن الكواكبى ألّف الكتابين فى حلب ، وأن عقله كان يتمخض بهما خلال السنوات الأخيرة من مقامه بهذه المدينة قبل براحه إلى مصر ، فلا شكّ فى أنه كتبهما بعد أن بلغ الأربعين من عمره مستعيناً بما كان يقرأ فى الصحافة التركية ، وفى الكتب التركية التى كانت تصل إلى حلب[2]

---

(١) الغزى ، مجلة « الحديث » ١٩٢٩ ، ٦ .

(٢) يقول صاحب « المنار » فى مجلته ١٩٠٢ ، ٥/٢٧٩ : « فقد كان يقرأ الجرائد التركية والمصرية حتى الممنوعة التى كانت تدخل إلى حلب كغيرها بوسائط خفية » .

خفية فيما كان يصل من الزوّار ، ولعلّه حمله فيما حمل من إستانبول حين زارها حوالى سنة ١٨٩٢ للميلاد .

والكتابان « جمعية أم القرى » و « طبائع الاستبداد » بلغا إلينا وحدهما فى جملة آثاره بعد أن عمل فيهما صاحبهما يد التعديل والتنقيح فنستطيع أن نقول فيهما وأن نبسط أثرهما وخطرهما ، فقد نشرا فى مصر حوالى سنة ١٩٠٠ للميلاد .

(ا) طبائع الاستبداد :

ما كاد الكواكبي يصل إلى مصر حتّى وقع من نفوس إخوانه موقعاً حسناً فالتفّوا حوله ، وتحلّقوا يستمعون إليه يقصّ عليهم من أخبار الشام وعيش الناس فيها من جور واستبداد وضيق . فارتبط بهم بروابط الود والصداقة حتّى إذا عرّفه صديقه الشيخ رشيد رضا صاحب « المنار » بالأستاذ الشيخ على يوسف تمكنت بين الرجلين أواصر الحبّ والتقدير ، واتفقا من غير شك على خطة فى النشر والتحبير . وفى ذات يوم صدرت « المؤيد » تحمل إلى قرائها فصولاً غريبة فى اللهجة والطريقة والموضوع ، لم يسبق لصحيفة عربية أن تطرقت إلى مثلها ، فقد كانت مشبعة بالصراحة والحرية والجرأة ، تحوم حول الاستبداد . فلفت الأنظار وتساءل القراء عن صاحب هذه المقالات تصدر فى جريدة « المؤيد » ، على رغم اتصالها الشديد بالخديو عباس الثانى وبالآستانة ، ويقولون تُرى من يكون صاحب طبائع الاستبداد ؟ « واعتقد الجمهور لأول وهلة أنه من نتاج قلم وتفكير فقيد الشرق الشيخ محمد عبده لولا الجفاء الذى كان مستحكماً بين صاحب المؤيد وبينه »[١] . فلما عرفوا أن صاحبه عبد الرحمن الكواكبي وضعوه فى الدرجة الأولى من رجال الفكر والقلم وأنزلوه منزلته وأعلوا قدره .

فما هى أبحاث الكتاب ، وما خطر فصوله ؟

لم نستطع أن نحصل على مجموعة جريدة « المؤيد » لذلك العهد فنحن

---

(١) إبراهيم النجار ، « الحديث » ١٩٤٠ ، ٦/١٤ .

لا نتمكن من إبداء الرأى فى هذه المقالات وطريقة عرضها فى الجريدة لأول مرة ولن نقول فى أسلوبها هناك وتنقيحها بعد ذلك أو اختلافها وإضافاتها عما نُشر منها بعد ذلك فى هذا الكتاب . فنحن قد وقعنا على طبعة منها متأخرة[1] عملتْ فيها يد التحريف والتصحيف ، فوقعت فيها أخطاء لم ترد فى الأصل على قلم كاتبها ، لأنها صريحة فى الخطأ بيّنة فى ذلك ، ولاشك فى أنّ الطبعة الأولى لها قد نفدت أو هى فى حكم النادرة ، فلا سبيل لنا إلى تحليل الكتاب إلا من هذه الطبعة .

جاء عنوان الكتاب : « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، وهى كلمات حقّ وصيحة فى واد ، إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد ، محررها هو الرحالة ك » . وقد بسط الرجل فى فاتحتها قوله : « وبعدُ ، فأقول وأنا المضطر للاكتتام حسب الزمان ، الراجى اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عمن قال : إننى فى سنة ثمانى عشرة وثلثمائة وألف[2] ، وجدتُ زائراً فى مصر على عهد عزيزها ومعزّها حضرة سمى عمّ النبىّ العباس الثانى الناشر لواء الحرية على أكناف ملكه ، فنشرتُ فى بعض الصحف الغراء أبحاثاً علمية سياسية فى طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، منها ما درسته ومنها ما اقتبسته غير قاصد بها ظالماً بعينه ولا حكومة مخصصة إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لِمَوْرِدِ الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار ، وعسى الذين فيهم رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات . ثمّ كلفنى بعض الأعزاء لجمع شمل تلك الأبحاث تعميما للفائدة ، فأضفتُ إليها بعض زيادات وحولتها إلى هيئة هذا الكتاب » .

وهكذا يعترف المؤلف أنه زاد فى الكتاب عما نشره فى الجريدة ولعلّه غيّر

(١) طبعة « المكتبة التجارية » لصاحبها مصطفى محمد ، ١٣٥٠ هـ – ١٩٣١ م . فى ١٣٦ صفحة .

(٢) أى سنة ١٩٠٠ للميلاد .

وبدّل متأثراً بما ورد إليه من نقد أو ملاحظة أو ما تقتضيه الظروف . واعترف كذلك أنه أخذها عن مصادر درسها وأخرى اقتبس منها . أما المصادر فقد بسط في المقدمة أمرها فقال إنه لا يعرف للأقدمين كتباً مخصوصة في السياسة لغير الرومانيين الجمهوريين . وقال : إن لبعضهم مؤلفات سياسية أخلاقية مثل كليلة ودمنة ورسائل غريغوريوس اليوناني ، ومحررات سياسية دينية كنهج البلاغة وكتاب الخراج . وفي القرون المتوسطة لا تؤثر مؤلفات في هذا الفن لغير علماء الإسلام ، فهم ألفوا فيه ممزوجاً بالأخلاق كالرازي ، والطوسي ، والغزالي ، والعلائي وهي طريقة الفرس ، وممزوجاً بالأدب كالمعري والمتنبي وهي طريقة العرب ، وممزوجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة وهي طريقة المغاربة . ثم ذكر أن المتأخرين من أهل أوربة توسّعوا في هذا العلم وألفوا فيه كثيراً ، وأن من الترك كثيرين ألفوا في أكثر مباحثه تآليف مستقلة وممزوجة مثل أحمد ودت باشا ، وكمال بك ، وسليمان باشا ، وحسن فهمي باشا. وأمّا العرب فقليلون ومُقلّون والذين يستحقون الذكر — فيما يرى منهم — رفاعة بك وخير الدين باشا التونسي ، وأحمد فارس الشدياق ، وسليم البستاني ، والمبعوث المدني[١] .

ولا شك في أن هذه الكتب هي جملة ما رجع إليه الكواكبي حين تأليفه ذكر منها ما ذكر ، ولكنه لم يرشدنا إلى كلّ الكتب الغربية التي عكف عليها واقتبس منها ، حتى تاه معاصروه فنسبوا بعض الآراء إلى جان جاك روسو ، وبعضهم نسبها إلى مؤلف إيطالي مجهول . وقد ذكر في كتابه « طبائع الاستبداد » جملة نسبها إلى « ألفياري[٢] » وترجمها بنصّها ، مما دفع إلى الاعتقاد بأن الكتاب مأخوذ من هذا الكتاب الغربي . وذكر الأستاذ أحمد أمين[٣] في دراسته للكواكبي أنه اقتبس كثيراً من أقوال ألفيري « Victor Alfieri » وهو كاتب

---

(١) انظر « طبائع الاستبداد » ، ص ٤ .

(٢) انظر الكتاب نفسه ، ص ١٣١ .

(٣) « زعماء الإصلاح » ص ٢٥٨ .

إيطالى وشاعر مشهور عاش من سنة (١٧٤٩ – ١٨٠٣) ، ونشأ فى بيت نبيل ، وساح فى أوربة نحو سبع سنوات وألف كتباً كثيرة عن مارى ستيوارت وميروب ، ودرس كتب فولتير وروسو ومنتسكيو ، وتشبّع بآرائهم الحرة ، وتعشّق الحرية وكره الاستعباد أشد الكره . وتساءل الأستاذ أحمد أمين من أين وصلت إليه هذه الأقوال ؟ وذلك لأنه يعلم أن الكواكبى لم يتقن لغة أوربية . ونحن نرى جواباً عن ذلك أن أحرار الأتراك كانوا يترجمون وهم فى عواصم الغرب كثيراً من هذه الكتب ، ولعل نسخة منها بلغت إلى الكواكبى خفية فى حلب . بل لعلّ الإيطاليين وكانوا على صلة بالسيد الكواكبى ، فى حلب ، وفى اليمن ، وفى غيرها – مما رأيناه فى ترجمته – قد وضعوا الكتاب بين يديه ، وفيهم قناصل فخريون يتقنون العربية فترجموها له سعياً فى خدمة الكواكبى أو إثارةً للشعوب العربية آنذاك .

وكيفما كان الأمر ، فالكتاب ليس اقتباساً من الإيطالية كله وليس جمعاً من مصادر عربية وحدها(١) ، وإنما هو مجموعة مقالات وفصول أخذت من كلّ مصدر بنصيب ؛ من القرآن ، والحديث وأمثال العرب والكتب التاريخية العربية والمترجمة ، أضاف إليها كاتبها ما خبر من حال الشعوب الإسلامية ، فأعمل فيها الفكر وأشرك فيها العقل والعاطفة فجاءت فى أساليب مختلفة ترتفع طوراً إلى ذروة البيان وتنخفض طوراً إلى درجة المقالة العادية السطحية ؛ ذلك لأن الرجل أول من كتب كتاباً بالعربية فى هذا الشكل ، وأول من حبّر موضوعاً متصل الحلقات بهذا الأسلوب من الإنشاء ، وهجر السجع ، وأنكر التمثل بالشعر فى كلّ صفحة ، أو تضمين الآيات فى غير مناسبة ، فكان باكورة فى الإنتاج . ولذلك يحمد كل الحمد إذا قورن بعصره وزمانه وثقافة أهله وأقرانه ، خاصة إذا ذكرنا ما كان للإرهاب والتهديد والضغط والإكراه من أثر فى الكتابة

---

(١) يقول رشيد رضا فى « المنار » ٢٧٩/١٩٠٢ : « إن ينبوع علم هذا الرجل صدره وإنه كان يزداد فى كل يوم فيضاناً وتفجيراً » .

آنذاك فى المواضيع العامة التى تمس الحياة الاجتماعية أو السياسية ، فكيف إذا كان الكتاب يمس الاستبداد من قريب ويدور حول الاستعباد ، ويصف الدواء لمناهضته والطرق لتحطيمه ، وتوحيد قوى الشعب فى سبيل ذلك .

وهو فى مقدمة وثمانية فصول ، بسط فى المقدمة مصادره ، وعرّف الاستبداد كتوطئة لبحوثه ، ثم راح يكتب فى الفصول على التوالى :

١ ــ تكلم فى الفصل الأول عن الاستبداد والدين وردّ قول الفرنجة الذين زعموا أن الاستبداد السياسى متولّد من الاستبداد الدينى ، فأثبت أن الكتب السماوية تدعو إلى خشية قوة عظيمة هائلة ، وأن هذه الدعوة جرّت عوام البشر إلى التباس الإله المعبود والجبار واختلاطهما فى مضايق أذهانهم ، من حيث استحقاق التعظيم والرفعة ، فضلّ الناس فى هذا الزعم ، ولكن العلماء نبّهوا بعد ذلك إلى هذا الضلال . فالإسلام هدم الشرك وأحكم قواعد الحرية السياسية ، وأعطى الناس حكومة الخلفاء الراشدين ومن تشبّه بهم . والقرآن نفسه مشحون بتعاليم تقتل الاستبداد وفيه الآيات البينات على لسان بلقيس ملكة سبأ ، أو قصة موسى أو خطاب فرعون ، وكلها تدعو إلى مجالس الشورى « وشاورهم فى الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » وقال : إنه لا يوجد فى الإسلام نفوذ دينى فى غير مسائل إقامة الدين . ولكن المسلمين أخذوا مما ليس فى دينهم فاقتبسوا التعظيم وطاعة الكبراء على العمياء ، وحاكوا مظاهر القديسين وعجائبهم والدعاة المبشرين وصبرهم ، وقلّدوا رجال الكهنوت فى مراتبهم وتميزهم فى ألبستهم وشعورهم . ويرى الكواكبى أن هذه المقتبسات هى أمهات للاستبداد وسلاسل للاستعباد ، وهى التى أفسدت الأديان وأشقت الإنسان ، وأبعدته عن جوهر القرآن وعظمة ما فيه من معجزة وإعجاز .

٢ ــ وتكلم فى الفصل الثانى عن الاستبداد والعلم فرأى أن سبب الاستعباد هو الجهل فى الرعية . والمستبد لا يخشى علوم اللغة أو علوم الدين ، ولكنه ترتعد فرائصه من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق

الأمم ، فهو يخشى العلوم التى توسّع العقول وتعرّف الإنسان ما هو الإنسان وما هى حقوقه . ويكره المستبد أن يرى وجه عالم ذكى ، فإذا اضطر إليه اختار المتصاغر المتملّق ، فبين الاستبداد والعلم حرب دائمة ، يسعى العلم فى نشر الحرية ويسعى المستبد فى إطفائها ، وكلاهما يتجاذبان العوامّ إلى طرفهما . فالعوام هم قوت المستبد وقوته ، إذا أفلتوا منه بالعلم خسر كلّ شىء ، ذلك لأنهم حين يتعلمون يفهمون حقيقة الحرية والعزة والشرف ، فلاسبيل إلى العبودية والاستبداد ، وما انتشر نور العلم إلا تكسرت قيود الأسر .

٣ — وفى الفصل الثالث يتحدث عن الاستبداد والمجد ويريد بالمجد إحراز المرء مقام حب واحترام فى القلوب ، ولكن الاستبداد يغالب المجد ويقيم مكانه التمجد . والمجد أمر طبيعى تتوق إليه النفوس وتحنّ إليه أعناق النبلاء ، فى السعى إلى الرفعة والنبل . ولكن التمجد هو القرب من المستبد بوسام أو تشرف بلقب أو منصب ؛ والمتمجدّون أعداء للعدل أنصار للجور يترامون على أرجل المستبد ويتخذهم لجاماً لتذليل الرعية ، وهم أعوانه يشاركونه فى استبداده لقاء انتفاعهم منه ، فهم العصابة التى تُعينه على ظلم الرعية ، منهم الوزراء والموظفون والقواد والعمال ، فهم يشاركونه فى امتصاص دم الأمة بأخذهم العطايا الكبيرة والرواتب الباهظة . فالمستبد فرد عاجز لا قوة له ولا حول إلا بهؤلاء المتمجدين ، فلا يخلص الأمة الأسيرة إلا العقلاء الأبرار الذين يشترون السعادة بشقائهم والحياة بموتهم .

٤ — وفى الفصل الرابع يتكلم عن الاستبداد والمال فينظر إلى الحيوان أولاً ليقرر أنه يلتمس رزقه من مورد طبيعى وأن الإنسان يلتمسه عند أخيه ، فهو يأكل لحم الإنسان منذ دهر طويل حتى حرّم الحكماء والأنبياء ذلك عليه وعوضوا عنه بالقربان من الحيوان ، ولكن الاستبداد أحيا سنّة أكل البشر

فجعل الأقوام طعمة للظالمين المستبدين المستعمرين . وتمتّع رجال السياسة والأديان بنصف ما يكسب البشر يُنفقونه فى الإسراف والرفاهية ، فيزيّنون الدنيا بملايين المصابيح لمرورهم مثلاً ولا يفكرون بالفقراء الذين يبيتون فى الظلام ، ويعيش التجار الشّرِهون والمحتكرون فى إسراف مما يعيش به سائر الشعب والبرية ، فتتفاوت الأقوات بسبب الاستبداد السياسى ويعبد الإنسان المال والجمال فيجنح إلى الادخار ويطبع على التموّل ويحرم الآخرين الرزق . ولهذا قامت جمعيات تسعى للتساوى والتقارب بين أفراد البشر لتمحو عار الاستبداد المالى وتقضى على الاحتكار ومزاحمة الضعفاء . وقام لهم المستبدّون الظالمون فسنّوا القوانين لحماية احتكارهم ، وكان من ذلك اختلال فى الملكية فأصبح أناسٌ يملكون الأراضى الواسعة وعاشت طبقة لا تجد أرضاً تنام عليها . فإذا لم تستدرك حكومات الشرق هذا الخلل بقانون تسنّه زاد الفقر وطغى المحتكرون وفسدت الأخلاق وعمّ الاستعمار ، وبغى الغنىّ على الفقير ، واشترى ضميره ، وسخّره لأمره، وجعله مستعبداً له ، وسلبه أعزّ ما لديه . وهذا الاستبداد مجلبةٌ للبلاء يخيف الفقراء كما يخاف البغاث من العقاب فلا يفكرون ولا يجرءون على طلب الحرية . لذلك يجب على الحكومات أن لا تسمح بتجاوز مقدار من الكسب والملكية تستبد بهما طبقة وتفتقر إليهما طبقة ، فينتشر السؤال وتذل النفوس ، ويشقى الناس بسيطرة الأغنياء على كلّ المقدسات .

٥ — وفى الفصل الخامس يتحدث عن الاستبداد والأخلاق : فيرى أن الاستبداد يفسد الأخلاق ويسوق إلى الحقد ويضعف حبّ الوطن لأن الفرد يجد أنه غير آمن على الاستقرار يودّ لو انتقل من وطنه ، ويضعف حبّ الأسرة لأنه لا يطمئن على دوام علاقته معها . وأسير الاستبداد لا يملك شيئاً يحرص على حفظه لأنه يملك مالاً معرضاً للسلب وشرفاً معرضاً للإهانة ، فلا يذوق لذة نعيم غير نعيم الملذات البهيمية فيحرص عليها . وهنا تمرض العقول ويختلّ الشعور ويرى الناس فى المستبدّ مظاهر الأبّهة فتبهر أبصارهم ويتحدّثون عن

تضخيمه وتعظيمه . ويذلون له . وينصاعون كما تنصاع الغنم بين أيدى الجزار فتجرى إلى حتفها ، أو كمثل الهوام تترامى على النار . وكم تلاعب القياصرة والملوك فى قلب الحقائق فعبثوا بالأديان وسخروها لخدمتهم . وخُدع بهم المؤرخون فسمَّوهم فاتحين وغالبين وعظماء فجاروهم فى استبدادهم . والحقّ أن المستبدين يعلّمون الناس الانقياد عن خوف وجبن . والتوقير عن كراهية وبغض . ويقلّلون الفسق والفجور عن فقر وعجز فيخفونها عن الأعين فحسب . وفى ظل الاستبداد يألف الناس النفاق والرياء فيفقدون الثقة فى أنفسهم وفى غيرهم . ويجدون فى الأجنبى ميزةً لا يجدونها عند أبناء جلدتهم . فينظرون إليه فى ثقة واعتماد ويأمنون له ، ولذلك عمل الأنبياء على إنقاذ الأمم من شقائها بفكّ العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه . وتبعهم فى ذلك الحكماء السياسيون الأقدمون فحرّروا الضمائر . ولم يبالوا بغوغاء الأغبياء . والشرقيون بعيدون فى حاضرهم عن الجد والعزم يرتاحون للّهو والهزل . يسكّنون بهما آلام النفس . ويُخلدون إلى الخمول والتسفّل طلباً لراحة الفكر . يتواكلون ويَدّعُون ويطالبون بالوظائف وما داموا كذلك فلينظروا ما حاق بالأمم المنقرضة ولينتظروا مصيراً كمصيرهم .

٦ — وفى الفصل السادس يتكلم عن الاستبداد والتربية فيقول : إن الاستبداد يؤثر فى الأجسام فيسقمها وفى الأخلاق فيفسدها . فهو يهدم ما تبنى التربية ، ولكنه يُبقى على التديّن الذى يُقنع بعبارات مجردة لا تَنْهى عن فحشاء ولا منكر . وذلك لفقد الإخلاص فيها . فقد ألفت النفوس أن تلجأ إلى الكذب والرياء والخداع والنفاق فى ظلّ الاستبداد فلا تأنف بعد ذلك من أن تستعمل هذه الطبائع مع الربّ والأب والأم والقوم والجنس حتى مع النفس . والحكومات العادلة تُعنى بالنسل فى زواجه وأولاده ومعايشه وآدابه . فيعيش النسل سعيداً بعمله ينعم بالرزق . ولكن الحكومات المستبدة تبعث الحيرة وتُميت الآمال ، لذلك يتعزّى أسرى الاستبداد بالدين . يعلّلون النفس بسعادة أخروية ويسلونها بمثبطات تُهوّن من حياتهم الذليلة ، فلا يتلذّذون بما يملكون . ويهبون أولادهم عبيداً للسلطة

لأنهم يائسون من إصلاحهم فى ظل الأسر ، لا يجدون صحة ولا علماً ولا غذاء ، وإنما يألفون الشقاء والتضييق والفقر ويُرضعونه أبناءهم بعدهم ، فتنحط الأمة إلى الأبد .

٧ – وفى الفصل السابع يتحدث عن الاستبداد والترقى فيقول : إن الترقى يكون فى الصحة والقوة والعلم والمال ، والإنسان يترقى ما لم يعترضه مانع يسلب إرادته كالعجز أو الاستبداد . فالاستبداد يسير بالإنسان إلى الانحطاط والتأخر والفناء ، فيشعر على الزمان بأنه كالحيوان لا يهمّه غير حفظ حياته الحيوانية . فعلى قادة الأمم أن يسعَوا إلى رفع الضغط عن العقول لتنطلق فى سبيلها نحو النموّ وتمزّق حجب الأوهام ، وأن يُقنعوا الناس بأنهم خُلِقُوا لغير الذلّة والمسكنة ، وأن يحركوا قلوبهم بخطابات مثيرة ، تدفعهم إلى اليقظة والنور وترفع عنهم ستر التأخر ، فالأمم قد سبقتهم ألوف المراحل ، وأن التقلب على فراش البؤس ووسادة اليأس مضرّ بالهمم . وأن ينبهوهم إلى أنهم يملكون رؤوساء كغيرهم وقلوباً كسواهم من الأمم فيجب أن يثقوا بأنفسهم وأن لا يُوكلوا غيرهم عليهم . فالمستمتعون ينسلون من كلّ جانب ليسلبوا الأموال ويُزاحموا المواطنين على أراضيهم وليتحيّلوا على تذليلهم فإذا تيقظت الأمة سدَّت الأبواب فى وجه الطامعين . ويرسم الكواكبى خطباً مثالية فى إثارة الشعور وإيقاظ الهمم وهداية أبناء الشعب وإبعادهم عن العبودية والذلّ والسجود أمام المنعمين . ويتلفت إلى المسلمين بأحاديث تُنْكِرُ الظلم، ثم إلى العرب كافَّة من غير المسلمين يحثّهم على الاستنارة بالعلم والاتحاد الوطنى والوفاق الجنسى دون المذهبى لعلهم يترقون فيصطدم الأجنبى بجدار ترقّيهم وعلمهم ، ولا يطمع فى الاستيلاء عليهم . ثم يقول : إن الاستعمار الغربى مهما مكث فى الشرق لا يخرج عن كونه تاجراً ليستمتع بوسائل الشرق وغناه لا يخدم العلم فيه . وها هم أولاء الهولانديون فى الهند وجزائرها ، والفرنسيّون فى الجزائر لم يسمحوا لأهلها بجريدة تُقرأ ؛ والإنكليزى يفضل قديدَ بلاده وسمكَ بحاره على طرى لحمنا وسمكنا . ويتوجه الكواكبى إلى الغرب فيحذّره من ظلمه

للشرق ويذكّره بفضل الشرق عليه، ويكيلُ اللومَ للشرق على تواضعه وتصاغره وتملّقه . فقد كفاه ما لقى فى سبيل ذلك كلّه . فالاستبداد كما يقول يبلغ فى الانحطاط بالأمة إلى الموت . والحكومات العادلة يجب أن تمهّد العيش للإنسان كما وعدت الأديانُ لأهل السعادة فى الجنان ، لكى يعيش الفرد أميناً على سلامته فى جسمه وحياته ، أميناً على ملذاته الفكرية والجسمية ، أميناً على حريته ونفوذه وماله وملكه، وشرفه ، فيعتبر الإنسان نفسه عضواً حقيقيّاً من جسم الأمة ، فيفتدى أمته بماله وروحه ، وينتظم أمرُ الأفراد فى الأمة ويكونون سدّاً فى وجه الاستبداد حين يعتقدون أن لا قوة فوق الشرع ولا نفوذ لغير الشرع ، فالشرع حبل الله المتين . وحينئذ لا يعتدى بعض على بعض ولا يتعدّى أحد على حدود غيرهَ . تسهر الأمة على مراقبة سير حكومتها لا تغفل ولا تتسامح كما أن الله لا يغفل عما يفعل الظالمون .

٨ — وفى الفصل الثامن ، يتحدث عن الاستبداد والتخلص منه فيستقرئ التاريخ ليستنتج منه أن الإنسان عاش دهراً طويلاً يسوسه الأقوياء والأذكياء على أنظمة مختلفة فى قواعد رائدها العدالة الوجدانية أو النظام التقليدى . وأكثرُ الناس لم يهتد إلى طريق مثالىّ فى الحكم ، لأن مشكلة الحكم أقدم مشاكل البشر ، والغربيون جالوا فى هذا السبيل وقرّروا مسائل كثيرة ما تزال فى أخذ ورد عند التطبيق . ويطرح على بساط البحث بعضاً من المباحث يدعو إلى تدقيقها ، فيتساءل ما هى الأمة والحكومة والحقوق العمومية والتساوى فيها والحقوق الشخصية ، وما هو الأصلح للحكم : أهو المطلق أم المقيّد ؟ وما هى وظائف الحكومة وحقوقها وطاعة الأمّة لها ، وتوزيع الضرائب ، والإعداد للدفاع ، ومراقبة الحكومة ، ورعاية الأمن ، وحفظ السلطة فى القانون ، وتأمين العدالة القضائية وحفظ الدين والآداب . وكيف توضع القوانين وتوزع الوظائف والأعمال ، أهى برأى الحاكم أم برأى الأمة . وكيف يفرّق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم . وكيف يعمّم التعليم ويتوسع فى الزراعة والصناعة

والتجارة . وكيف يكون رفع الاستبداد ونيل الحرية فيجد أنه على خمسة وعشرين أسلوبا[١] . يقول إنها تحتاج إلى تدقيق عميق وتفصيل طويل ، وهى كلها تتعلق بالحقوق الإدارية لا يقف عندها وإنما يخص كلامه برفع الاستبداد . فيرى أن الأمة التى لا يشعر أفرادها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية. والاستبداد لا يقاوم بالشدة . وينقل قول ألفيارى : « لا يفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه فكم من جبار عنيد جندله مظلوم صغير » . فهو يرى أن الضعيف قد يخذل المستبد الكبير ولا يكون ذلك إلا بالتعليم وإقناع الرأى العام والثبات. ولإزالة المستبد طرق يشير إليها المؤلف ويستعرض الحالات الصعبة فى إزالته ، ويعتقد أن رئيس وزارة المستبد ورئيس قواده أو رئيس الدين عنده هم أقدر الناس على الإيقاع به . وهو يداريهم تحذراً ، وإذا أراد إسقاط أحدهم يوقعه بغتة . ثم يشير إلى ترتيب المقاومة والاستعداد الفكرى وتعميمه وذلك بإشعار الأمة آلام الاستبداد ، ودفعها إلى أن تحكم نفسها بنفسها وبذلك يتم السير الطبيعى لسنة الكون .

* * *

وهنا ينتهى الكتاب ، وقد عالج فيه كاتبه أنواع الاستبداد وطرقه وسبل التخلص منه ، وبسط أسباب وجوده فى الأمة ، فنقل نظريات الغربيين والمشارقة فى تعريف الحرية واعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ، وما عرفه الرجل خلال دراساته . وقد أُخذ عليه أنه نظرى فحسب لم يدعم كتابه بمشاهداته وهى كثيرة ، فلم يبسط فيه حال بلاده الشام ، ولم يضرب الأمثلة صريحة عن العثمانيين وتسلطهم على العالم العربى ولم يتطرق إلى الأشخاص . ولعل ذلك لغاية واحدة هى سيرورة الأفكار فى الناس من غير أن يصطدم بالمخدوعين والمحبين للدولة

---

(١) يقول رشيد رضا فى « المنار » ١٩٠٢/١٠٦ : « وهذا الفصل الأخير وما فيه لم ينشر فى المؤيد » ثم يضيف : « ونرجو من مؤلفه أن يكتب لنا كتاباً آخر فى المباحث التى وضعها تذكرة للكتاب فلا يوفيها حقها غيره » .

العلية العثمانية آنذاك ، وكان بعضهم يرى فى الدولة العثمانية حامية لشعار الإسلام . وموضعاً لحماية الدّين والجامعة المحمدية . وقد اضطر صاحبُه إلى حذف فصل وإضافة فصل وتعديل الكتاب قبل طبعه ، ومع ذلك لم يجد طابعاً ينشره جملةً . حتى جاء رجل سورى الأصل مصرى الوطن[١] فاعتنى بنشره ، وجعله موقّعاً برمز الرحالة « ك » ، وذلك فى أرض الكنانة لأواخر القرن التاسع عشر على ما كانت عليه النهضة والحرية آنذاك بالنسبة إلى بلاد الشام . وقد علمنا مع ذلك أنّ السّلطان أرسل مبعوثيه لجمع نسخه وإتلافها لئلا يشيع هذا الفكر الخطر على استبداده ، وقد حرّم دخوله إلى الأراضى التى كانت تحت إشراف زبانيته ، فقد كان الكتاب على جرأة نادرة حين يُطالب بالحرية وقلع الاستعباد ، وخلق مدينة فاضلة وجمهورية مثالية كجمهورية أفلاطون ومدينة الفارابى ، رسم لها الأصول والطرق ، وبسط طريقة العيش بين الأفراد وصلتهم بالحكام ، فى ديمقراطية لم تحققها إلى اليوم جمهورية فى العالم على الشّكل الذى أراده وتخيّله. لذلك كان فى نظر الكثيرين — كما قلنا — خياليّاً بعيداً عن الواقع ، يستمدّ آراءه من الإنسانية الكاملة والأخلاق الفاضلة والأحكام العادلة ، فكأنه يتحدّث عن أحلام وأمان لا يمكن أن تتحقق لعصره وزمانه ، ولكنه فيلسوف يرسم الطريق لقومه ويعبد السبيل لأمته . فهو مشعل ينير ومنارة تهدى وعقلٌ منظم . قد سكب آراءه المشرقة وأفكاره العميقة فى هذا الكتاب الصغير . الذى يصلح دستوراً ونظاماً وقانوناً يسير على هديها كلّ من دخل ميادين الاجتماع والسياسة والفكر . فهو فى كتابه رسم السياسة لأمته بصدق وإخلاص ، يفوق ما رسم الوزير المغربى[٢] فى الشرق ، وما كتب ماكيافيلى فى الغرب ، بل إنه خلاصة

---

(١) فى مجلة « الحديث » ١٩٣٧/٦٥٣ لمحمد لطفى جمعة : « ولم يجد هذا الكتاب أحداً يعتنى بنشره سوى رجل فاضل سورى الأصل مصرى الوطن اسمه إبرهيم فارس صاحب مكتبة الشرق » .

(٢) ألف الوزير المغربى أبو القاسم الحسين بن على المتوفى سنة ٤١٨ هـ . كتاباً فى السياسة نشرناه بدمشق ١٩٤٨ ، وقد نافس فيه ابن سينا والفارابى .

لما قيل من آراء عند الغربيين قريب الشبه بكتب مونتسكيو وروسو وخاصة فى « العقد الاجتماعى »[١] (كونتراسوسيال : Contrat Social) .

ولعله فى كتابه تخيّل الحكم الصالح لعهد عمر بن الخطاب وجرى على مثال بعض الخلفاء الراشدين فى سنن الإدارة والعدالة فجعل الشّعب سيّداً والحكام أجَراء قد استعملهم الناس لخير حياتهم وسعادة عيشهم ليس غير . ولا شكّ فى أنه فَهِمَ هذه البحوث التى قرأها عن الغرب وهضمها واستساغها ، وسبكها بقالبه وأسلوبه ، وهى بحوث حقوقية علمية اجتماعية يكتبها رجل لم يدرس الحقوق فى جامعة ولم يتعلم الاجتماع فى مدرسة ، ولكنه على كلّ حال استطاع أن يقدم ذلك لقرائه كأستاذ وعالم ومفكر بعربية سليمة وكتاب متسق الفصول حسن التبويب ، لم يؤلف مثله بعد ابن خلدون فى معالجة مشاكل الشرق فى ضوء ما يصنع الغرب وما يكتبه من أمثال مونتسكيو وروسو وألفيارى ، فى محيط مظلم حرّمت عليه أمثال هذه البحوث وقراءاتها وكتاباتها والاستماع إليها لأنها تمسّ نظام الحكم وتُصيب من الحكام العثمانيين مقتلاً ، فتنبه النيام وتُوقظ الغافلين ، وتفعل فى النفوس الشرقية فعل النار فى الهشيم !

وقد نَشر ابنه الدكتور محمد أسعد الكواكبى فصولاً[٢] لم تقع فى طبعة الكتاب ذَكَر أنها من إضافات والده ، وأنها كانت على أن تنشر فى طبعة منقحة ، ولكن المنية عاجلته دون تحقيق هذه الأمنية . وما تزال هذه الفصول مخطوطة لم تُطبع كلّها ، وهى لا شك تُضيف إلى ما نعرف عن الكواكبى وآرائه معلومات جديدة يحسن أن تجمع وأن تنشر نشراً علمياً مع بسط صور لخطّ الرجل ومسودته وتنقيحاته ، كما يفعل الغربيون حين يعرضون لدراسة عالم من علمائهم ، وعسى أن يقوم أحد العلماء بهذا فيسدّ ثغرة ما تزال مثيرة ، وعند ذاك يستطيع الباحثون أن يوفوا الرجل حقه فى تفكيره وبيانه وطريقة تأليفه ودراسة آثاره دراسة موفقة كاملة .

* *

---

(١) نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية المغفور له عادل زعيتر .

(٢) مجلة « الحديث » ١٩٥٢ ، ٥٥٥ — ٥٥٨ .

(ب) «أم القرى [١]» : «أى ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد فى مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ» .

يقول الأستاذ رشيد رضا [٢] : «ولما هاجر إلى مصر كان أول أثر له فيها طبع سجل جمعية أم القرى ، وكان يقول إن لهذه الجمعية أصلاً وإنه هو توسّع فى السجل . ونقّحه ست مرات آخرها عند طبعه منذ سنتين ونيّف أى عقيب قدومه إلى مصر . وقد قال لنا مرة إن الإنسان يتجرّأ أن يقول ويكتب فى بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه فى بلاد الاستبداد ، بل إن بلاد الحرية تولّد فى الذهن من الأفكار والآراء ما لا يتولّد فى غيرها» .

وهكذا يُنبئنا صديقه أنه ألّف الكتاب منذ زمن ونقّحه وبدّل فيه وزاد عليه متأثراً بجوّ الحرّية التى لقيها فى مصر . ويُخبرنا صديقه الشيخ كامل الغزى أنه أطلعه على الكتاب قبل رحيله إلى مصر [٣] ، ويقول عن كتاب «جمعية أم القرى» : «فقد أطلعنا عليه مراراً» .

فالكتاب أُلّف فى حلب وبيضه ابنه الدكتور محمد أسعد ، ولكنه نقّحه فى مصر مراراً ، ونشره فيها سنة ١٩٠٠ ، ثمّ نشره الأستاذ رشيد رضا فى «المنار» سنة ١٩٠٢ ، وقال [٤] : «ولكن فى القسم السياسى كلاماً لبعض أعضاء الجمعية فى الدولة العلية — أيّدها الله تعالى — نحذفه عند الوصول إليه ، لأنه لا يؤلم أكثر الناس ، ولا ينبغى أن يعرفه إلا الخواص» . وعن «المنار» نشر فى الناس كذلك ، ولكن طبعة «المنار» تختلف عن الطبعات الباقية بأنها حذفت

---

(١) طبع بعنوان «سجل مذاكرات جمعية أم القرى أو مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد فى مكة المكرمة سنة ١٣١٦ ، جامعه السيد الفراتى كاتب الجمعية» ونشر فى المجلد الخامس من مجلة «المنار» الإسلامية بمصر ١٣٢٠ ؛ وطبع كذلك على نفقة إبرهيم فارس ، صاحب مكتبة الشرق فى مصر ، شارع كلوت بك .

(٢) رشيد رضا ، مجلة «المنار» ، ١٩٠٢ ، ٥/٢٧٩ .

(٣) كامل الغزى ، مجلة «الحديث» ، ١٩٢٩ ، ٦/٤٤٨ ، نقلنا العبارة فى الحديث عن حياته قبل صفحات .

(٤) رشيد رضا ، مجلة «المنار» ، ١٩٠٢ ، ٤/٩٥٩ وما تليها .

أشياء فى الدولة العثمانية ، وهى كذلك منقحة ومزيدة بدليل ما قال صاحب « المنار » فيها : « وقد وعدنا جامع الكتاب بتنقيح النسخة التى سننشرها فى المنار وبإضافة زيادات إليها هدت إليها الحنكة والاختبار » .

ولهذا لا نستطيع أن نحكم على الكتاب كما خرج من قلم مؤلفه فقد تولاّه الزمان بالتصحيف والتحريف بعد وفاته ، وصدر فى حياته منقّحاً بقلم السيد رشيد رضا ، أو بقلم الشيخ محمد عبده ، كما قال الأب شيخو[1] ، فقد كانا مشهورين فى مصر ، ومعروفين بأسلوبهما الأدبى وبيانهما الإنسانى ، قبل أن يفد إلى مصر .

وكلّ الذى نستطيع أن نقول فى أسلوب كتابته إنه قريب من أسلوب هذين الرجلين ، وهو أسلوب الفحول لذلك العصر ، فقد اختلط على الناس كما قال المؤرخون لزمانه ، وحار الأدباء فى نسبته إلى أحد المشهورين ، وتخبطوا فى معرفة صاحبه حتى انكشف للناس اسمه ، فأعجبوا به أيّما إعجاب .

هذا فى بيانه وأسلوب إنشائه ، أمّا من حيث الفكرة فقد قال أحد الكتاب : « وقد أخذ فكرة الأفغانى فى عقد المؤتمر الإسلامى فشرحها شرحاً مطوّلاً فى كتابه الذى صدر باسم سجلّ جمعية أم القرى ، وضمن هذا الكتاب أعمال المؤتمر الذى لم يكن عقده » وهكذا كان للكواكبى أن يجعل فى الطليعة ، وأن ينسجم مع كبار المفكرين المصلحين فى عصره ، فهو طوراً يشبه محمد عبده ، وطوراً جمال الدين الأفغانى ، وأحياناً الشيخ رشيد رضا[2] ، فى الأسلوب وفى الفكر .

---

(١) « تاريخ الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين» تأليف الأب لويس شيخو ، نشرت تباعاً فى المشرق ٢٣/٣٨٣ ، ثم فى بيروت ١٩٢٦ ، ص ١٨ : « ونظر فيه الشيخ محمد عبده » .

(٢) يقول رشيد رضا : فى « المنار » ٥/٢٧٩ : « وقد كنا على وفاق معه فى أكثر مسائل الإصلاح حتى إن صاحب الدولة مختار باشا الغازى اتهمنا بتأليف الكتاب عندما اطلع عليه .. وربما نشير إلى المسائل التى خالفنا فيها الفقيد فى هامش الكتاب عند طبعه ، وأهمها الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية » .

ومهما قيل فى عون هؤلاء الكتّاب للسيد الكواكبى فقد كان الرجل مبدعاً مبتكراً، بل إنه كان كاتباً اجتماعيًّا مثيراً وقصصيًّا عظيما. فقد استطاع أن يكتب فى إصلاح قومه على أسلوب قصة تخيّلها ونظم فصولها، فتصوّر أن جمعية من المسلمين اجتمعت فى مكة فى ١٥ من ذى القعدة سنة ١٣١٦ هـ ١٨٩٨ وأن كل قطر إسلامى أوفد عضواً يمثّله فى هذه الجمعية. وأنهم اختاروا العضو المكى رئيساً لهم — على عادة المؤتمرات فى العالم اليوم — واجتمعوا قبيل الحجّ للتداول فى أمور المسلمين يعرضون الأدواء ويصفون الأدوية. ويشخّصون الأمراض ويبسطون العلاج.

ويخيل للقارئ أن هذه القصة من نسج الخيال فحسب لكنّ الكواكبى يقول: «إنّ لها أصلاً من الحقيقة» وقوله هذا يزيد القصة روعة. ويدعم خيالها ما يُدير فيها من حوار وما يجعل بين يديها من مقدّمة.

فهو يكنى نفسه بالفراتى. ويقول إنّ بعض أفاضل العلماء والسَّراة[1] والكتّاب السياسيين بحثوا الوسائل للنهضة الإسلامية. فأخذوا ينشرون آراءهم فى ذلك فى الجرائد الإسلامية الهندية والمصرية والسورية والتتارية، ويقول إنه اطلع على كثير من مقالاتهم فى هذا الموضوع وإنه قلّدهم فنشر ما عنّ له. ثمّ بدا له أن يعمل على توسيع هذا المسعى بعقد جمعية من سراة الإسلام فى مكة مهد الهداية فعقد العزم على إجراء سياحة بزيارة أمهات البلاد العربية لاستطلاع الأفكار وتهيئة الاجتماع فى موسم أداء فريضة الحج. فخرج من بلدته إحدى مدن الفرات فى أوائل محرم سنة ١٣١٦ هـ. ثمّ سلك الطريق البحرى من إسكندرونة إلى بيروت فدمشق ويافا والقدس والإسكندرية. فمصر. والسويس. والحديدة. فصنعاء. فعدن. وعمان. والكويت. وحائل[2]. فالمدينة. ومكة. ووصل إليها فى أوائل ذى القعدة فوجد الأفاضل الذين اجتمع بهم فى

---

(١) السراة: جمع سرى.

(٢) حائل: قاعدة إمارة نجد.

البلاد قد أجابوا الدعوة عدا الأديب البيروتى . ثمّ سعى فى تخيّر اثنى عشر عضواً أضافهم إلى الأعضاء من مراكش ، وتونس ، والقسطنطينية ، وبغجة سراى ، وتفليس ، وتبريز ، وكابل ، وكشغر ، وقازان ، وبكين ، ودلهى ، وكلكتا ، وليفربول .

ثم تخيّر داراً فى حىّ متطرف بمكة يعقد فيها الاجتماعات بصورة خفية ، واستأجرها باسم بوّاب داغستانى روسى لتكون مصونة من التعرّض . وانعقد المؤتمر من منتصف الشهر إلى سلخه ، فى اثنى عشر اجتماعاً غير اجتماع الوداع ، فكانت مذاكرات هامة صار ضبطها وتسجيلها بكمال الدقة ، وكان هذا الكتاب هو السجل يتضمن كيفية الاجتماعات والمفاوضات والمقرّرات عدا ما آثرت الجمعية كتمانه .

وراح السيّد الكواكبى يبسط فى الكتاب سجلّ الاجتماعات فى اثنى عشر فصلاً ، أرّخ لكل اجتماع باليوم والتاريخ .

١ — الاجتماع الأول : « خطبة الرئيس » وكان عدد الأعضاء فيه اثنين وعشرين فاضلاً كلهم يحسنون العربية ، عرّف الفراتى بعضهم إلى بعض ، ووزّع عليهم قوائم مطبوعة بالجلاتين استعارها من تاجر هندى بمكة ، وترجم لكل منهم فيها ، ببيان الاسم والنسبة والمذهب والمزية ، وأوضح الرموز التى يستعملها فى المؤتمر .

وأعضاء الجمعية [١] هم : الفراتى ، الشامى ، القدسى ، الإسكندرى ، المصرى ، اليمنى ، البصرى ، النجدى ، المدنى ، المكّى ، التونسى ، الفاسى ، الإنكليزى ، الرومى ، الكردى ، التبريزى ، التاتارى ، القازانى ، التركى ، الأفغانى ، الهندى ، السّندى ، الصّينى .. ورئيسهم المكى ، وكاتب الجمعية هو الفراتى نفسه .

وتكلّم الرئيس فى الانتصار للدين والسعى للديمقراطية فى الحكم « وأمرهم

---

(١) حضر الجمعية ممثل أو أكثر لكل قطر إسلامى أسبغ على كل منهم وصفاً ونعتاً خاصاً كالبليغ والحافظ .

شورى بينهم » ، وبسط أمر تقهقر المسلمين منذ ألف عام ، وأن الشلل استولى على كلّ أطراف المملكة الإسلامية ، وأن الخطر قرب من جزيرة العرب فسعى المخلصون لتوحيد الوجهة وجمع القوة ، فنشروا مواعظ ومباحث تدور حول الحالة الحاضرة ، من جهل وخال وتنحي باللائمة على الأمراء والعلماء والأئمة لتقاعسها عن الاتفاق . وأوصى الرئيس بالاكتتام فى الاسم والصراحة فى القول ، ونبذ المذاهب المختلفة واتباع مذهب السلف وهى عقيدة الحنابلة التى يأخذ بها أهل الجزيرة . ثمّ دعاهم إلى عدم اليأس مما وصلت إليه الأمة من ضعف وفتور فقد نشأ فى الإسلام أنجاب أحرار وحكماء أبرار يستطيعون أن يوقظوا الأمة من غفلتها الحاضرة وخاصة إذا استطاعت أن تضمّهم جمعية كهذه الجمعية ، فيد الله مع الجماعة . وطلب إليهم التفكير فى المسائل التى ستدور حولها المباحث فى كلّ يوم عدا الثلاثاء والجمعة ، من بعد طلوع الشمس إلى قبيل الظهر . وهذه المباحث تحوم حول سبب الفتور فى الأمّة الإسلامية وتشخيص دائها ووصف دوائها ومقاومة البدع والشرك .

٢ – الاجتماع الثانى : « الداء أو الفتور العام » وتناول الرئيس بحث الفتور النازل بالمسلمين ، وذكر أن هؤلاء أقلّ نشاطاً وانتظاماً من جيرانهم غير المسلمين حتى لقد خيّل للناس أن الإسلام والنظام لا يجتمعان . وتكلم الهندى فرأى غير المسلمين من النحل الوثنية أكثر فتوراً من المسلمين ، فراجع الرئيس « المكى » عن رأيه وطلب إلى إخوانه أن لا يصرّوا على رأيهم الذاتى وأن لا ينتصروا له ، فالرأى خاطر يسنح وربما كان صواباً أو خطأ ، والأساس هو البحث والمناظر . ونقد « الشامى » العقيدة الجبرية فرأى أنها من المخدرات المثبّطات ، فأجابه القدسى أنها وجدت تنفيساً للمقهورين البائسين فهى سبب الاعتدال النشاط ، ودفعٌ إلى الإيثار العام . وإنما السبب فى الفتور هو تحوّل السياسة الإسلامية من ديمقراطية إلى ملكية مقيدة ثمّ مطلقة . وقد جعل المتطرّفون منها وسيلة للانقسام فى الرأى فوقعت الحروب الداخلية والخارجية ، وأصبح بأس المسلمين بينهم . وأجابه « التونسى » إن جرمانيا وقع فيها مثل ذلك ولكنها نجحت ، فسبب البلاء

تأصّل الجهل فى غالب أمراء المسلمين المترفين . ورأى « الرومى » أن البليّة هى فى فقد الحرية ، حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات وحريّة المباحثات العلمية . فالحريّة هى روح الدين ومنذ فقدت الحرية لجأنا إلى الخرافات والملهيات فضعف إحساسنا وألِفَ كثير منا الاستعباد والاستبداد والذلّ والهوان فصار الانحطاط طبعاً ، وصارت المطالبة بالإصلاح مُروقاً من الدين ، كأنّ مجرد كون الأمير مسلماً يُغنى عن كلّ شىء حتى عن العدل . وكأنّ طاعته واجبة على المسلمين وإن كان يخرب بلادهم ويقتل أولادهم ويقودهم ليسلمهم لحكومات أجنبية . ورأىِ « التبريزى » وجوب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأجاب « الفاسى » أن طاعة أولى الأمر واجبة . ولكنّ الصيغة صريحة لا تؤيد سلطة الأمراء على الإطلاق ونقل عن ابن طباطبا[1] فى « الآداب السلطانية » ما كان سنة ٦٥٦ من فتوى العلماء حول أفضليّة السُّلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر ؟ ففضّلوا العادل الكافر . ثم ضرب المتحدث الأمثال بحكمة بسمارك وغاريبالدي وتمنى أن يرى فى العرب رجالاً مثلهما يجمعون كلمة الأمة ويوفقون بين الأمراء . وأجاب « المدنى » بأن الطامّة هى من تشويش العلماء المدلّسين وغلاة المتصوّفين الذين استولوا على الدّين فضيّعوه وضيّعوا أهله . يتأوّلون القرآن بما لا يحتمله محكم النظم الكريم . ويدّعون تسنّم المقامات وزخرفة القربات . فاقتبسوا من أصحاب التّلمود والبابوية ومقامات البطارقة والكردينالية والرهبنة مراتبهم ومراسمهم سحراً لعقول الجهلاء واختلاباً لقلوب الضعفاء . ووضعوا أحاديث مكذوبة . وأقاموا لهم أسواقاً فى العواصم فَسَرت الخزعبلات والأوهام وأفسدوا العامة . ورأىِ « الرومى » أن المنشأ لكلّ فساد هو انحلال السلطة القانونية وتسلّط فرد عليها .

٣ — الاجتماع الثالث : « الدّاء أو الفتور العام » . وهنا أكمل « الرومى »

---

(١) ابن طباطبا هذا هو المعروف بابن الطقطقى المتوفى سنة ٧٠٢ هـ صاحب كتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية » .

قوله فى ولاية الجهّال المتعمّمين ، وتدخّلهم فى كلّ شىء مما يصدع الشرع ، فهم يزيّنون للأمراء استقلالهم فى الرأى ومعاداة الشورى . فأجابه « الكردى » إن العلماء اقتصروا على العلوم الدينية وبعض الرياضيات وأهملوا باقى العلوم الرياضية والطبيعية . وهذا سبب نمو الغرب ورقيّه . وهم يقتصرون على البحث فى النوافل والحكايات الإسرائيليات والنّوادر والكرامات وذلك جعلهم أحطّ من غيرهم . فقال « الإسكندرى » إنّ السبب فى الفتور هو يأسنا من مباراة الأمم الأخرى . ورأى « الأفغانى » أن الفقر هو السبب لأنه قائد كلّ الشرور ، والحكومات صارت تجبى الأموال من المساكين والفقراء وتبذلها للأغنياء . وقال « الإنكليزى » إن المسلمين إذا اتبعوا دينهم أمنوا الفقرَ واستغنوا عن المبادئ المتّبعة فى الاشتراكية ، وطلب التساوي والتقارب فى الحقوق ، ورأى أن فقد الاجتماعات والمفاوضات والوعظ فى أمور الجماعة أفقد الإحساسَ باجتماع الشمل للبحث فى أحوال المسلمين . وعند الغرب يتوجّهون إلى اختراع مبادئ لاجتماعهم كعقد الندوات والتفرغ للمذاكرة وإلقاء الخطب وإبداء التظاهرات ، وإيجاد المتنزهات والتمثيليات وادخار الآثار . وإقامة النصب ، وإنشاد الأغانى والحكم ، وكلّ ذلك ينشئ فى القوم حياةً اجتماعيةً ويبعث الحماسةَ والحميّة . ورأي « الصّينى » أنّ السبب ميل الأمراء إلى العلماء المتملّقين المنافقين الذين يزّينون لهم الاستبداد . وتطرّق « النّجدى » إلى تبدّل النظرة إلى الدين ، فطرأ التأويل والتّحريف عليه ودخله الشِّرْك فأمسى محتاجاً إلى الرشد والإصلاح .

٤ — الاجتماع الرابع : « الدين والإسلام والشرك والتصوّف » . فتكلم « النْجدى » باحثاً فى ناموس الكون ، ووجود الأنبياء ورسالة المصطفى ودعا إلى اتباع الصريح المحكم من القرآن ، والواضح الثابت مما قال الرسول . ورأى أن آفة البشر الشرك . فالناس سريعو الإعراض عن ذكر الله إلى ذكر مَنْ يتوهمون فيهم أنهم شركاء وأنداد لله ، فيعظّمونهم ويخضعون لهم ويدعونهم ، ويرفعون حاجاتهم إليهم . وَعدّد الإشراك فى الملك وفى الصفات وبسط الأمر فى حال

المشركين من إعداد الأصنام والتماثيل ، والوقوف عند القبور وطلب الحاجات والاستغاثة بالشيوخ ، وجعل الدين لهواً ولعباً فتغنَّوْا ورقصوا ونقروا الدفوف وهم يُظهرون الخشوع والعبادة .

ومن العلماء من حمل كلَّ ما فعله الرسول أو قاله على التَّشريع ، فعظم التَّشدد فى الدين . وبسط المتكلم حكايات عن النبىّ وشواهد لحياته وأقواله فى هذا الصدد ، وسرد الأحاديث الكثيرة والآيات البيّنة ، وروى ما كان من المتأخرين فى تقليد الرسول بالسّواك وغيره . وقال إن غالب العلماء الشافعية يُحسنون الظن بغُلاة الصوفية . فأجابه « المصرى » مبيّناً مذهب الشافعية من الإعجاب بالزّاهدين والمتصوفة والتأوّل لهم ، ولكنَّ أهل الجزيرة أهل عصبيّة وصلابة رأى وعزيمة لا ينساقون مع البدع وإنما يتمسّكون بالدين الحنيف كما جاء وينفرون من التوسّع فى البحث .

٥ — الاجتماع الخامس : « الكتاب والسّنة النبوية » . وفيه تكلم « الإنكليزى » فذكر إسلامه مستهدياً بالكتاب والسنّة . وأنه كان بروتستانتى المذهب ، والبروتستانت انقلبوا عن الكاثوليكية لترجيحهم الاقتصار على الإنجيل ومجموعة الكتب المقدسة ، متوناً فقط ، أى بإهمال الشروح والتفسيرات وهم يُنكرون الرياسة الدينية والرهبانية والتوسل بالقدّيسين ، ولذلك تقرّب من الإسلام ووجد فيه ضالته ، وهو هنا يحب أن يعلم ما الكتاب وما السنّة ، وكيف يلزم المسلم العمل بهما ؟ فأجابه « النّجدى » متوسعاً فى تعريفهما وفى الكلام عن نواسخ الأحكام وتَفَرُّق بعض المسلمين فى فهمها . وتكلّم « المصرى » عن مراتب الأحكام والعبادات ورجا لو ألّف فيها العلماء كتباً منسّقة تسهل على العامة أن تعرف بها ما يكلفها الدين إياه . وتحدّث « اليمنى » عن حال الإسلام فى اليمن وأنه يتبع أصول ابن حنبل ، وأن العلماء فيه يعرفون العربية المضرية القرشية معرفة كافية . ويقرءون كتاب الله قراءة فهم ، ويتضلّعون فى السنّة المدوّنة ، ويكونون واسعى الاطلاع على سيرة النبى وأصحابه . وأصحاب عقل سليم فطرى لم يفسده المنطق

والجدل ونزعات المعتزلة و إغرابات الصوفيـّة . وقال إن هناك طبقة تليهم هى طبقة القراء ، الذين يقرءون كتاب الله قراءة فهم و يستهدون فى أصول الدين بأنفسهم و يبنون ذلك على قرآن ناطق أو سنـّة صريحة .

٦ — الاجتماع السادس : « تفرّق المسلمين إلى شيع ومذاهب » . تكلم « السندى » عن طريقة بلاده ، وذكر أنهم يتبعون النقشبندية وقد اعترف أن فيها بدعاً عرف تحريمها حين حضر هذه الاجتماعات ، فعزم على النّصيحة والموعظة لهداية جماهير النقشبندية وتصحيح وجهتهم فى بلاده ، وذكر أن سبب نشوء هذه الطرق هو تضييق الفقهاء على المسلمين أمر العبادات ، فصار المسلم لا يرى لنفسه فَرَجاً إلا بالالتجاء إلى صوفية الزمان الذين يهونون عليه الدين كلّ تهوين . وعلق الرئيس « المكى » موضّحاً بحث التصوّف ، فبدأ بالتنسك فى المسلمين وانتهى إلى دخول الفساد على التصوّف و إضراره بالدين و بالمسلمين خلال القرون ، وذلك عندما سيطر الغلاة على الأمر . وتكلم « القازانى » فقص حكاية المستشرق الروسى الذى اهتدى إلى الدين الإسلامى فاجتمع بمفتى قازان يريد أن يتتبع القرآن وأن يتحقق ما و رد عن رسول الله (ص) ، و روى النقاش الذى دار بينهما حول رواية الأحاديث وموقف الأئمة منها ، وما كان من رأى المستشرق فى تحقق المسلمين بأنفسهم كلّ دليل من الكتاب أو السنة ، وأنهم على تشديد وتشويش فى أمر الدين سبب انحطاطهم كما سبب انحطاط من قبلهم من أهل التلمود والإنجيل ؛ وأنه يرى أن يؤلف كتاباً يصور حكمة دين الإسلام وسماحته . ورأى « التبريزى » أن الفتنة التى أصابت الإسلام كانت فى التدقيق والجدل حول الخلافات بين الأئمة ، فاتسعت دائرة الأحكام فى الشرع ، وصار الخلف عاجزين عن التقاط الفروع ، وأقبل المتأخرون على التقليد ، وصار أهل كلّ إقليم يتعصبون لمؤلفات شيوخهم ، وتقسم المسلمون بذلك شيعاً وأحزاباً ، وضرب لذلك مثلاً حال بلاد فارس .

٧ — الاجتماع السابع : « مجمل الأدواء والأدوية » .

وهنا طلب الرئيس من « الفراتى » أن يُبدى رأيه فى سبب الفتور المبحوث

فيه وأن يقرّر مجمل الآراء المعروضة . فواح الكاتب يورد خلاصة ما كان من سبب فى انحطاط المسلمين وما اقترح الأعضاء من أدوية وعلاجات لذلك ، فلخصها فى أسباب ثلاثة : دينية . وسياسية . وأخلاقية . وانتهى إلى إبطال التخالف وتشويش الأفكار وإسكات المدلسين وخلع المنجمين ، ونبذ التقليد والتعصب للمذاهب ؛ وإلى طلب الحرية ونزع الاستبداد وإبعاد الأمراء المستكبرين المترفين . وإلى محو الجهل وتقوية التعليم . وصرف التملق . وأضاف إلى ذلك أسباباً أخرى فى السياسة والإدارة العثمانيتين ، حيث طلب توحيد القوانين . وتولية الأكفياء للمناصب الخطيرة ؛ وندّد بهضم الدولة العثمانية لحقوق العرب فى هذه المناصب . وتمييزها الأسافل . وإدارتها المعتمدة على التزلف والرشوة وبغضها للعرب ونبذهم بالألقاب . وهاجم أمة الترك وماجلبت من نقمة على العرب .

٨ — الاجتماع الثامن : « حال النشء الخلقية » .

أكمل « الفراتى » قوله . فبسط معايب الأمة . وإهمالها لشئونها . وتعلقها بالفوضى . وركونها إلى الخمول والكسل . وسعيها نحو التمجد والتعالى ، وتركها النساء جاهلات مع العلم بأن أكبر مسبب لانحلال أخلاق الأمراء أتاهم من جهة الأمهات والزوجات السافلات ؛ ونظرتهن إلى الأجانب نظرة الكمال وتقليدهم والتمسك بعاداتهم . والنشء المتفرنج لا خير فيه لأنه ينظر إلى الأعاجم نظرته إلى سيد متفوّق .

٩ — الاجتماع التاسع والعاشر والحادى عشر :

قرئ فيها قانون الجمعية فقرة فقرة . وأبديت عليه الملاحظات قبل إقراره.

١٠ — الاجتماع الثانى عشر : « قانون الجمعية » .

إقرار القانون بتعليم الموحدين . من تأليف الجمعية . وشروط الأعضاء فيها . ومركزها وشعبها ، ومبانيها . وأموالها ، ونفقاتها ، ووظائفها ، ومساعيها وأعمالها . ووضعها المؤلفات والكتب والمتون والأبحاث والمقالات . وتقرر بعد ذلك

نشرُ القانون وترجمته إلى التركية والفارسية والأوردية . واختارت الجمعية مركزها الموقت فى مصر دار العلم والحرية . وكان اجتماع الوداع فى رابع أيام العيد فأقرت الجمعية بعض قرارات سرّية لا تذاع وتلحق بالسجل . ومنها أنها ربطت آمالها بجزيرة العرب . فهى مشرق النور الإسلامى ، وفيها الكعبة والمسجد النبوى وشعبها أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسية وأدياناً ومذاهب . وأحرص الشعوب الإسلامية على الحرية والاستقلال . فهم عرب ، والعرب أعرق الأمم فى أصول الشورى وأحرصها على احترام العهود، وأنسبها ليكونوا مرجعاً فى الدين وقوة للمسلمين .

وهذه الأسباب جعلت جمعية أم القرى تعدّ العرب الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة المشرقية . وهكذا تمت الاجتماعات .

* * *

وأضاف السيد « الفراتى » بعد نهاية الاجتماعات لاحقة بين فيها سبب تعلق الجمعية ببحث السياسة الدينية وإحلالها الموقع الأول فى مناقشاتها ، فقال إنها بحثت علة الفتور فرأت أنها الخلل الدينى فإذا زالت العلة زال المعلول . ودار حول النقد الذى يمكن أن يوجه إلى هذا القانون من صلة الدين بإدارة الملك . وتحدث بعد ذلك فى الخلافة الإسلامية على مرّ العصور حتى بلغ إلى العثمانيين وتكلم عن سلاطينهم ، ورأى بعد ذلك أن تكون الجامعة الدينية تحت لواء الخلافة . وأن يكون الخليفة عربياً قرشياً مستجمعاً للشرائط ، وأن يكون مركزه « مكة » . ترتبط به جميع السلطنات والإمارات الإسلامية ارتباطاً دينياً . ورسم هيئة الشورى والاتحاد الإسلامى وسوّغ إرجاعَ الخلافة إلى العرب ، وحلل أسباب الغزو التتارى والأوربى خلال القرون وبين أنها ليست من أنواع الجهاد ولا من الحروب الدينية وإنما هى غارات قرصان .

* * *

هذه هى الخطوط الرئيسية لكتاب « أمّ القرى » رأينا فيها كيف أحكم

الكاتب قصة الاجتماعات والمناقشات ، حتى لكأنها دارت حقيقة فى مكان معلوم وأسلوب محدود ، لم يفته فى وصفها شيء من أدقّ التفاصيل ، فهى رواية عظيمة — كما قال الأستاذ أحمد أمين — بل إنها خطة لجامعة إسلامية قد انعقدت منذ خمسين عاماً ، وصفها شاهدها وصف عيان ، وبحث فيها مشكلة المسلمين والإسلام ، ورسم علل الأمم المحمدية من المشرق إلى المغرب وصف حاذق سياسى إدارى عالم ، كشف عن معرفته للمذاهب الأوربية والشرقية فى الدين والسياسة والعلم ، وأفصح عن رسوخ قدمه فى فهم الدّين الإسلامى فهماً عميقاً فصّل فيه الأمرَ عن العبادات والمعاملات وأوضح أنه إمام من أئمة الدّين فى الاستشهاد بالكتاب والسنة استشهاداً لا يتم إلا للمتبحرين فى المصادر الإسلامية الغراء ، الواقفين على تاريخ الإسلام وتقلبه على العصور ، المتحمسين للعروبة القرشية ، والخلافة المحمدية ، والديمقراطية الإسلامية ، ورفع صاحبه إلى مصاف العلماء المؤرخين المصلحين الذين فهموا الدين وصلته بالتاريخ وعلاقته بالشعوب ، فهو لا يقلّ شأناً عن كبار الفلاسفة الدينيين فى الغرب مثل « لوثر » و « كالفين » وغيرهما . وهو قد تناول المشاكل التى نحسّ بها اليوم ونشكو منها ونختلف فيها ، فكتابه ما يزال كتاب الساعة ودستور الإسلام ، يجب أن يعود إليه العربُ والمسلمون ليعرفوا الإسلام الصحيح ، والعلة الخفية ، والدّواء الناجع ، على لسان عالم صادق مخلص ، عبقرىّ ، ابتكر هذه الرواية من خياله فيما نظنّ ، وسبق الزمان ، فحق للجامعة العربية أن تستقى من بحوثه وأن تستشفّ من آرائه ، وأن تستنير بهديه ، فهو مصلح الإسلام فى القرن العشرين ، وهو طبيبهم — كما يقول الأستاذ أحمد أمين — يفحص المرض فى هدوء ويصف الدّواء فى أناة ، فهورزين هادئ الطبع صافى الذهن ، واسع الفكر عظيم الإلمام ، وهو إلى ذلك روائى ومسرحى واجتماعى ودينى ، ندر أن تجد البلاد العربية مثيلاً له فليتها عادتْ إليه ، ونظرتْ فى كتابه ، وأقرته لمدارسها العالية ، وتناولته بالبحث والقراءة والمطالعة ، مع النظر إلى الزمن الذى ألف فيه ،

والضيق الذى نُشر خلاله ، وضآلة المصادر وصعوبة الاتصال بين الشعوب .
وبُعد المؤلف عن الدراسة العالية والشهادة السامية والجامعة المثالية . ولكنها العبقرية
لا تحتاج إلى مدرسة ولا إلى شهادة أو جامعة ، لأنها منارة تهتدى بهديها الجامعات ،
وتنال على نورها الشهادات ، وترتفع بها الدراسات ، فإذا كان أفلاطون قد
اشتهر بكتابه « الجمهورية » فى اليونان والعالم ، فإن الكواكبى لا يقلّ عنه شهرة
بكتابه « أمّ القرى » فى العرب والعالم .

* * *

(حـ) صحائف قريش : ألفه السيد عبد الرحمن الكواكبى كذلك ، وذكره
ابنه الدكتور محمد أسعد ، فقال : « وكان معدًّا للطبع ولكنْ حال دون ذلك
سياحته الطويلة المذكورة فى غير هذا المكان ثمّ وقوع الوفاة الفجائية ، فصُودر
مع الأوراق المصادرة ، وأرسل هدية إلى السلطان . وقد بحثتُ عنه فى أكثر من
دور الكتب الأهلية بالآستانة بعد إعلان الدستور وخلع السلطان فلم أعثر له
على أثر[1] » . وقد أعلن الكواكبى نفسه عنه فى صدر كتابه « أمّ القرى »
فقال : « مَنْ يظفر بنسخة من هذا السجلّ فليحرص على إشاعته بين الموحدين .
وليحفظ نسخة منه ليضيف إليه ما سيتلوه من نشريات الجمعية باسم " صحائف
قريش " التى سيكون لها شأنٌ إن شاء الله فى النهضة الإسلامية العلمية والأخلاقية » .
ولا شك فى أن هذا الكتاب يعالج فضل الخلافة فى قريش وفضل مكة على غيرها
فى قاعدة الخلافة ، وهو تتمة لبحوثه فى « أمّ القرى » .

(د) العظمة لله : ألفه الكواكبى كذلك وذكره ابنه فقال : « هذا الكتاب
أيضاً لم يُطبع ، وقد صودر مع أمثاله[2] » وقد ذكر الأستاذ الجليل محمد كرد على
ـ الذى كان من أصحاب المرحوم إبان وجوده فى مصر ـ فى كتابه
« المذكرات » أنه اطلع عليه . وقد قال الأستاذ الرئيس كرد على فى مذكراته

---

(١) « الحديث » ، محمد أسعد الكواكبى ، ١٩٥٢/٩/٥٤٨ .
(٢) المصدر نفسه بالصفحة نفسها .

يصف سرقة أوراق الكواكبي ، وأن السلطان أرسل مدير معارف بيروت عبدالقادر قباني يحملها إليه ويرضى أسرته بمبلغ من المال : « فما حمل إلا عدداً معيناً من كتب الكواكبي المطبوعة . أما المخطوطة فأخذها أحد البالغين الراشدين من أولاده ، وفيها كانت أوراقه السرية ، وبعض كتبه التي بدأ بوضعها ، ومنها ما قرأ لي مقدمته واسمه (العظمة لله) . وكان سياسيّاً كسائر ما خطته يمينه[١] » .

(هـ) مجموع أشعار : ذكره ابنه فقال إن أباه كان يسجل ما يروقه من الشعر ، ويصنفه على عشرين صنفاً ، واضعاً في نهاية كلّ بيت شعر رقماً خاصّاً يدلّ على غزل أو نسيب أو مدح أو هجاء أو رثاء إلخ . . وقال : « ولا أزال أحتفظ بكناش[٢] فيه مجموع أشعار تنوف على الثلاثة آلاف بيت مصنفة على الطراز المذكور ومحررة بخطه المشهور الذي لا يقلد ، إلا أنه لم يكن في حياته مكترثاً لقول الشعر الذاتي ، حيث لم أعثر له على شيء من ذلك سوى بعض أبيات حماسية قالها عفواً حين تحريره « أمّ القرى » في حلب ، وقصيدة حرّرها وأرسلها من مصر إلى أخيه السيد مسعود وهي بائية صورتها محفوظة عندي[٣] » . ولعل القصيدة التي يشير إليها ابنه هي القصيدة الواردة في أم القرى[٤] ولكنها ميمية أنشدت على لسان الرئيس « المكي » في مدح الدّين والدعوة إلى تنقيح الشرع من الحشو والبدع . وهي أشبه بنظيم العلماء منها بشعر الشعراء والفحول .

وحبذا لو نهض عالم أديب لطبع هذه الآثار طبعاً علميّاً . وخاصة كتاب « طبائع الاستبداد » فأضاف إليه ما حرّره صاحبه من زيادات على الطبعة الأولى ، وهي تقرب من ثلث الكتاب رأيناها . وقد أعدّها ابنه للطبع بنفسه ووقفته دون ذلك ظروف الحرب الثانية كما قال[٥] . فهي

---

(١) « المذكرات » ، لمحمد كرد علي ، ج ٢ / ٦١١ ، بعنوان : « الدم الطاهر » .

(٢) الكناشة : مجموعة كالدفتر تدرج فيها الشوارد والفوائد .

(٣) « الحديث » ، محمد أسعد الكواكبي ، ١٩٥٢ ، ٩/٥٤٥ .

(٤) الطبعة الرابعة « لأم القرى » ، ص ١٥٨ .

(٥) محمد أسعد الكواكبي ، « الحديث » ١٩٥٢ ، ٩/٥٤٩ .

هامة فى كمال فهم المؤلف وأسلوبه وتطوره ، حررها قبل وفاته بثلاثة أشهر فى مصر . وهو فى جو الحرية والعلم والمصادر مما لم يتح له مثله فى حلب .

٢ ـ الكواكبى الوطنى

نظر الكواكبي إلى الوطن نظرة الأمويين إلى وطنهم حين الفتوح ، فرأى أنه يمتدّ من تخوم السند إلى أقصى تطوان فأحبّ أن تربط بين أجزائه رابطة العروبة واللغة والدين . وعمل لهذا الوطن الكبير كما يعمل بعض الزعماء المصلحين اليوم ، فأحبه وعمل له وتفانى فى سبيله ، فلم يقعد منذ نعومة أظفاره عن المناداة بحبه والدفاع عنه والعمل له ، فحرّر وكتب المقالات فى إصلاحه ودفع الأذى عنه . وحين تولى الوظائف عمل جاهداً فى الإصلاح والخير . فلما كتب كتبه نادى بحريته ونزع سلطة العثمانيين وجورهم . ولم يهب جواسيسهم وعيونهم والمرضى والخونة من أبناء قومه . وهاجر حين ضاقت به سبل الاستبداد والاستعباد فنزح إلى مصر ساعياً فى حماية وطنه وقومه من جور الأتراك . وساح فى أطراف هذا الوطن الواسع يريد أن يلم شعثه وأن يجمع كلمته وأن ينقيه من أمراضه وعلله . فكان الوطنى المخلص المتفانى الذى ينادى بطرد المستعمرين عن أرضه لأنهم مستغلون أنانيون يسلبون أموال أمته ويزاحمون المواطنين على أملاكهم ، ويتحيلون لإذلالهم ، فهم طامعون فى عبودية شعبه وإفقاره وإبقائه على الجهل . وهو يصف الاستعمار بأنه تاجر يستمتع بوسائل الشرق وغناه . وآراؤه فى الوطنية لا تختلف عما ينادى به أعمق المتحررين من زعماء الشرق والعروبة اليوم . وعمله لوطنه لا يقلّ عن عمل الجيوش المكافحة عن الحمى والذائدة عن الحدود ، فهو وحده حمل القلم ونادى بحرية أمته وطرد الغاصبين عنها ، لم يستسلم لمغريات المستعمرين ولم يلن أمام تهديدهم . وقد كان يستطيع أن يرضى بالمناصب الرفيعة

وأن يؤثر العافية على هذا النضال الذى وقف له أيام حياته كلها ، حتى قضى وطنياً مكافحاً فى سبيل هذه الإمبراطورية العربية ، لم ينل من دنياه غير الغصة والأسى والألم والحرقة ، متنقلاً مهاجراً غريباً لاجئاً فى كل قطر عربى ، لأنه كان يجد فيه وطنه الكبير وأمله المرتجى . لم ينعم بالقصور والرياش والمال ، ولم يبال بما خلف وراءه من زوج وأولاد وأسرة وعشيرة ، وإنما ضرب أروع الأمثال فى التضحية الوطنية ، فكان الزعيم الوطنى الذى لا يباريه فى حبه لقومه ووطنه أكبر زعماء الغرب ومناضليهم ممن عملوا اتحاد ألمانية وإيطالية والولايات المتحدة والولايات السوفيتية . فهو علم من هؤلاء الأعلام الوطنيين ، وسور شامخ فى البذل والفداء ، لا ينساه الوطن العربى أبد الدهر ، ولكن يفتقده فى حلك لياليه ، وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر .

٣ ـ الكواكبى السياسى

دخل السيد عبد الرحمن صرح السياسة من بابها الواسع فكتب فى الصحف ينادى بسياسة عربية إسلامية ، وألف الكتب والبحوث فى سبيل هذه السياسة ، وكان إيجابياً ـ كما نقول اليوم ـ فخط لهذه السياسة منهجها ودستورها وقانونها ، وحدد الخطة والطريقة ، فكان كمن يرسم لقومه سبيل العمل إلى خلافة عربية قرشية مركزها مكة ، تربط بين أجزائها روابط العرق والدين ، ورأى أن الشعب العربى فى الجزيرة أعرق الشعوب وأبعدها عن شوائب الاختلاط . ثم سن لهذا الشعب أسلوب الحكم الديمقراطى الذى يقوم على الشورى والعدل والمساواة . واستعرض طرق الحكم فى الإسلام منذ الراشدين إلى يومه فاختار أحسنها وأقربها إلى الحكم المثالى . ووصف وظائف الأمراء والوزراء وما يكون من المناصب الخطيرة فى فوضى الحكم أو فى نظامه . ونبذ الحكم المطلق ، وكتب فى توزيع الضرائب وإعداد الدفاع عن الوطن ورعاية الأمن وتأمين العدالة القضائية ، فكان السياسى

الواعى الذى يفكر بكل شىء ويخوض فى كلّ دقيقة من دقائق الحكم والسيادة . ومن خلاصة كتابيه تتبين الجمهورية الفاضلة فى السياسة العادلة والخلافة العاقلة . ولا شك فى أنه طرق مشاكل العثمانيين والعرب والغربيين وحللها على ضوء السياسة العلمية المنطقية فكتب لأمته كتاب السياسة مشرق النواحى واضح المعالم لا التواء فيه ولا محاباة ، ولا ميل ولا زيغ ، وإنما كان عربياً خالصاً بالرغم من كلّ ماقد يحوم حول سياسته من دعم الغربيين لها أو رضاهم بها .

٤ ــ الكواكبى الاجتماعى

إذا كان الكاتب الاجتماعى هو الذى يصف قومه ويرسم عللهم وأمراضهم ثمّ يتبين الداء ويصف له الدواء فالكواكبى بلا مراء على رأس الكتاب الاجتماعيين الذين دخلوا فى صميم الشعب وأحسوا بأوجاعه وآلامه وشكاواه . والأمة العربية وقعت فى أشراك الاستعمار والانحطاط والانحلال فتخبطت فى ظلمات الجهل والإسفاف والسخافة ، فسبحت فى بحر من العقائد والبدع والزيف فى الحياة وفى الدين آلت إليها من السحرة والمنجمين والمتفيهقين والمتعالمين أو أدعياء الدين خلال القرون المظلمة فكأن لا بدّ لهذا الكاتب من تصوير ما وقعت فيه وابتليت به . فقد ركبها التصاغر والملق ، والتمجد والتنابذ بالألقاب والسعى وراء الرواتب والمراتب ، والسير وراء الشره والتكالب على المال ، فقام الاحتكار ، وعمّ الاستعمار والاستبداد والطيش والفقر والنزق ، واستذلت النفوس وخمدت الضمائر وماتت الآمال ، وديست المقدسات وفسدت الأخلاق ، وانتصر الحقد ، وضعف حبّ الوطن ، وسيطر الفرد فتلاعب الزعماء المزيفون بالشعب ، وسخروا العامة لمآربهم ، وقلبوا الحقائق ، وعبثوا بالأديان ، واستنام الناس لراحة الفكر والجمود . وسارت فى العامة مثبطات تهوّن من حياتهم الذليلة لا يجدون نجاة من المرض والجهل والفقر وأصبحوا كالحيوانات البهيمية لا تستيقظ ولا تستنير .

لذلك هبّ الكواكبي منذ نشأ مذعوراً لأمته كيف حال بها الحال وآلت إلى شرّ المآل ، فدعا إلى التساوى بين الناس وإلى توفير العلم والغذاء والكساء للفقراء ، ونادى بالعدالة الاجتماعية والأحكام الديمقراطية . وصاح بالغافلين والمستضعفين صيحته المدّوية فلم تذهب مع الريح وإنما دكت الأطواد ، وآتت أكلها بعد حين ، وكان فى صيحته يتدرّع بالأمل ، ويركب الطموح ، وينبذ اليأس والخوف والجزع ، يريد أن يدفع الفتور عن المسلمين وأن يجمعهم على صعيد الحبّ والتآلف ، وأن يرموا بالخرافات والملهيات جانباً ، وأن يتعلقوا بالاشتراكية العاقلة وأن يتفرغوا للندوات والمذاكرات . وأن يتلفتوا إلى إنكار الرياسات الدينية الكاذبة ، والرهبانية المحرمة ، والتوسل بالقديسين والمشايخ ، والبدع والصوفية .

وهو بذلك عالج قضايا البيت ، والأسرة ، والتربية ، والمرأة ، والشارع ، والحديقة ، والقصر ، والحكم ، فتطرّق إلى أفراد المجتمع وتناول بلاياه وأمراضه ووصف علله وأدواءه فكان خير حكيم وخير مصلح اجتماعى . ولم يقتصر على القول والكتابة وإنما عالج بنفسه ذلك فنصر الضعفاء والمظلومين حين تولى المناصب إلى أن عافت نفسه الحكم ، فوقف على منبر المصلحين ينادى بملء صدره حتى سكت ما بين جنبيه وقضى .

٥ ــ الكواكبى الأديب

صوّر الكواكبى عصره وزمانه وما يصطرع فيه من أهواء وما يضطرب فيه من نزعات تصوير الكاتب الأديب . فأرسل من نفسه صيحات مدوّية ، بقلم بارع سريع التأثير عميق المدى ، فى لغة متينة سهلة لم تصطنع قبله لرسم آلام الأمة وأمراضها وأدويتها وعلاجها ، ولا استخدمت قبلُ فى رسم المشاعر القومية والنزعات الاجتماعية والخلجات السياسية . خرج فيها من مستلزمات البيان القديم

فى مزاوجة الجمل واستعمال المجازات والعكوف على السجع إلى ميادين فسيحة من سهولة التعبير وانسجام الجملة ، وتسلسل العبارة ، وانقياد الفكرة إلى أعمق مداها . فكأنّ الكلمات قطعة من نفسه ، أو كأنها حسرات ترسلها ضلوعه أو زفرات يتنفس بها صدره لأنها كانت طبيعية لا تكلّف فيها ، تثير فى القارئ ما أثارت فى المؤلف فتصل بينه وبينه برابطة من فكر ووشائج واسعة التأثير تحمله إلى الجوّ الذى كان فيه الكاتب الأديب ، وهذا هو الأدب الحق فيما نرى . ولقد عالج الأديب موضوعات لا تتصل بالخيال الأدبى ولكنه صاغها بأسلوب أدبى فجعل من بحثه فى سياسة المسلمين رواية أجرى الحوار فيها كما يجرى فى مسرحية كاملة الفصول دقيقة التفاصيل ، وكان لخياله الأدبى الرائع فضل فى ربط أفكارها وجملها ، وانسجام عباراتها وفواصلها لا يقع إلاّ لأديب موهوب .

وفى كتابيه – اللذين حللنا فصولهما قبل قليل – ألواح جميلة من روائع الأدب فى تصوير الاستبداد ، أو الجهل ، أو الفقر ، أو حبّ الوطن ، أو سيطرة البدع ، أو الحثّ على اليقظة والنهضة ، ما يشفع لنا بدفع الأدباء إلى دراسته كأديب كبير من أدباء القرن التاسع عشر ، وفى هذين الكتابين كذلك خطب فى إثارة الهمم وإيقاظ الشعور تصلح أن توازن بالخطب العربية المشهورة لعصورنا الأدبية من متانة التعبير ، وصدق التصوير ، وعمق التفكير . وقد قلنا من قبل إنّ أسلوبه اختلط على النقاد فى عصره فنسبوا كتابه فى الاستبداد إلى محمد عبده ورشيد رضا وجمال الدين الأفغانى ، ممن اشتهروا بروائع البيان فى الصحافة والمقالة . ولعله أخذ بيانه عن مدرسة القرآن وأسلوب الحديث لكثرة ما حفظ فى صباه ووعىّ فى شبابه من هذين الينبوعين الثرين[1] ، فجاء بيانه على أبسط أسلوب وأسهل منال ، بعيداً عن التقعر والغوص على الغريب وإطالة الجمل

ولو قد مدّ الله فى عمر الكواكبى وأطال فى كتابته فعرض للموضوعات الأدبية فى خطبه لسلك فى فحول الأدباء المجلين على عصور العربية كلها . ولكن

---

(١) الثر : الغزير .

الحال التى كان فيها ، والعيش القلق الذى غمر حياته ، والسعى إلى الهجرة التى راودت فكرته ، والتنقل فى الأسفار أواخر سنيه كلها حالت دون كماله ، ولكنه كان أديباً فى موضوعاته الاجتماعية والسياسية والدينية ما فى ذلك شك لا يجاريه فى طرقها أديب لعصره أو كاتب لزمانه ، وفى النماذج التى نسوقها بعد قليل شاهد على ما نذهب إليه .

٦ ـ منزلة الكواكبى

يحتلّ الكواكبى فى تاريخنا الحديث موقع الصدارة بين الكتاب المفكرين ، والزعماء المصلحين وعلماء الاجتماع ، وأرباب السياسة ، وقادة الفكر ، ورجال الدين ، وأدباء الخطبة والرواية والقصة . فقد كان قائداً من قوّاد النهضة ، وزعيما من زعماء الإصلاح ، ووطنيًّا مخلصاً وعاملاً مناضلاً ، وعبقريًّا نابغة .

ولسنا نقول هذا بعد أن طوته السنون ، فقد قاله معاصروه من الأدباء والكتاب ، فعرفوا له مكانته ، وقدروا له عبقريته ، وذهلوا لنبوغه وبيانه وكتابته وبحوثه . فقال فيه صاحب « المنار » ،وهو يقرظُ طبائع الاستبداد حين صدوره : « حملتْ به فكرة عالم عامل ومحنك عاقل ، حلب الدهر شطريه وعرف ما له وما عليه ، ولما تمّ حمله وأراد الله أن يظهر فى الوجود فضله وضعته تلك الفكرة الوقادة والقريحة النقادة فى أرض الحرية من هذه البلاد المصرية [1] » وقال وهو يقرّظ « أم القرى » : « هو كتاب لم يكتب مثله فى الإصلاح الإسلامى فقد جمعت فيه آراء المصلحين بقلم حكيم من حكمائهم وعالم اجتماعى من أفضل علمائهم [2]» . وقال فيه وهو يرثيه : « أصيب الشرق بفقد رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامى ، وعالم من علماء العمران وحكيم من حكماء الاجتماع

---

(١) رشيد رضا ، « مجلة المنار » ، ١٩٠١ ، ٣/١٠٥ .

(٢) رشيد رضا ، « مجلة المنار » ، ١٩٠٢ ، ٤/٩٥٩ .

البشرى [١] » ثم قال فيه : « كريم الأصل كبير العقل ، تربى أحسن تربية ، وتعلم أحسن تعليم ودخل فى الأعمال المختلفة وتصدّى للمشروعات المتعددة ، وكتب فى أدقّ المسائل أحسن الكتابة ، وساح فى البلاد ، واختبر أحوال الأمم حتى بلغ أشدّه [٢] » . ثمّ قال فيه : « أرأيتَ عقلاً يتصرّف هذا التصرف الذى يفوق فيه الحكماء والفلاسفة فى علم لم يأخذه بالتلقى ، وهو أصعب العلوم البشرية وأعلاها كيف يكون أثره لو تربى وتعلم فى مدارس منتظمة كمدارس أوربة الجامعة [٣] » . وقالت « مجلة الهلال » فيه : « وكان واسع الاطلاع فى تاريخ المشرق على العموم وتاريخ الممالك العثمانية على الخصوص وله ولع فى علم العمران [٤] » . وقال الأستاذ الرئيس محمد كرد على فيه : « فالفقيد يعدّ من كبار رجال النهضة الحديثة فى هذه الدّيار [٥] » . وقال فيه الأستاذ إبرهيم سليم النجار : « فأعاد إلى الأذهان صوت فيلسوف المعرّة منذ تسعمئة سنة وقد خرج الصوتان فى حلب الشهباء فذهبا صُعداً فى الأفق وتركا دويًّا فى جميع هذه الأرجاء [٦] » . وكتب الأستاذ أحمد أمين يوازن بين الكواكبى والأفغانى فقال : « كانت معالجة الأفغانى للمسائل معالجة ثائر ، تخرج من فمه الأقوال ناراً حامية ومعالجة الكواكبى معالجة طبيب يفحص المرض فى هدوء ، ويكتب الدواء فى أناة ، الأفغانى غاضب والكواكبى مشفق ، الأفغانى داع إلى السيف ، والكواكبى داع إلى المدرسة [٧] » .

وهكذا وضع الكواكبى مع المعرى وابن خلدون ومحمد عبده وجمال الدين الأفغانى فى قرَن [٨] واحد ، فكان علماً من الأعلام ، وزعيماً فى زعماء الإسلام ، وكاتباً مفكراً عالماً اجتماعيا فى الطليعة من كتابنا ومفكرينا .

---

(١) رشيد رضا ، « مجلة المنار » ، ١٩٠٢ ، ٥/٢٣٧ .

(٢) المصدر نفسه ٥/٢٨٠ .

(٣) المصدر نفسه ٥/٢٤٠ .

(٤) « الهلال » ١٩٠٢ ، ٢٩/٥٩٦ .

(٥) مجلة « المقتطف » ١٩٠٢ ، ٢٧/٦٢٤ .

(٦) مجلة « الحديث » ١٩٤٠ ، ١٤/٥ .

(٧) « زعماء الإصلاح » ، ص ٢٧٨ .

(٨) القرن : المقرون بآخر

الفصل الرابع

منتخبات من آثار عبد الرحمن الكواكبي

١ ــ الكواكبي الوطني[1]

الغرب والشرق

أصيب الشرق بكوارث ومصائب أقعدته عن السعي والرفعة والمجد ، ونهض الغرب وهب ينشئ حضارة كبيرة أذهلت الشرقيين وجعلتهم في إعجاب وإكبار ، نسوا معه حضارتهم وكيانهم ، وتغافلوا عن معايب الغرب ، والكواكبي يصف هذا الحال في إيجاز :

نَعَمْ ، الغربيُّ ماديُّ الحياة ، قويُّ النَّفْس ، شديدُ المعاملة ، حريصٌ على الاستِئْثارِ ، حريصٌ على الانْتِقام ، كأنَّهُ لم يبقَ عنده شيءٌ من المبادئِ العاليةِ والعواطفِ الشَّريفةِ التي نَقَلَتْها له مسيحيَّةُ الشَّرْق . فالجرمانيُّ مثلاً جافُّ الطَّبع ، يرى أنَّ العضوَ الضَّعيفَ الحياة من البشَر يستحقُّ الموت ، ويرى كلَّ الفضيلةِ في القوَّة ، وكلَّ القوَّة في المال . فهو يُحِبُّ العلمَ ولكن لأجل المال ،

---

(١) عمدنا في الصفحات الماضية إلى دراسة الرجل وكتبه وبيانه ، ونثبت هنا مختارات من آثاره ، لنعرض ألوان تفكيره في النواحي المختلفة من الوطنية والسياسة والاجتماع والأدب والعلم . ولم يصل إلينا من هذه الآثار إلا كتاباه « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » ، كما قلنا ، وهما يتشابهان أحياناً في الآراء والأفكار والجمل شبه القطرة بالقطرة . فربما تكرر الرأي وأعيدت الفكرة ورويت الجملة ثانية وثالثة ، فأثبتناها كما جاءت زيادة في التوضيح والبيان ، لنبرهن على أنها من ينبوع واحد صاف . فلم نتعب في الاختيار لأن كل ما كان من الكواكبي حسن ، ولكننا حرنا في التصنيف لأن الآراء متداخلة متشابكة منوعة المواضيع ، ولم نقابل بين آرائه وآراء المصلحين والزعماء في عصره وبعد عصره ، لضيق المجال ، ونريد أن نشير إلى أننا اعتمدنا في رواية النصوص على « طبائع الاستبداد » طبعة ١٩٣١ « وأم القرى » نشرة « مجلة المنار » في الكتاب المستقل الذي أصدره محمد رشيد رضا ، بعبارة مصححة ، جاءت في مجلة « المنار » بالسنة الخامسة قبل ذلك .

ويحبُّ المجدَ ولكن لأجل المال . واللّاتينىُّ منه مطبوعٌ على العُجْب[١] والطَّيْش ويرى العقلَ فى الإطلاق، والحياةَ فى خَلْع الحياء ، والشَّرفَ فى الزِّينةِ واللِّباس ، والعزّ فى التغلُّب على النَّاس . أمَّا أهلُ الشَّرْق فهم أدبيُّون ويغلب عليهم ضَعْفُ القلب وسلطانُ الحبّ والإصغاء للوجدان والرحمة ، ولو فى غير موقعها ، واللّطف ولو مع الخَصْم ، والفتوّة والقَناعة والتَّهاون فى المستقبَل . ولهذا ليس من شأنِ الشَّرْقىِّ أن يُجوِّزَ ما يستبيحُه الغربىّ ؛ وإن جوَّزَهُ لا يُحْسِنُ استثمارَهُ ، ولا يقْوَى على حِفْظه . فالشرقىُّ مثلاً يهتمُّ فى شأن ظالِمِهِ المستبدِّ ، فإذا زال لا يفكِّر فيمن يخلُفُه[٢] .

الاستعمار

تقدم الغرب فى ميادين العلم والفكر والصناعة والحضارة ، واندفع إلى القوة والجبروت فتطلع إلى الشرق وضعفه فاستصغره ، وهجم عليه بآلاته وأسلحته ليخضع أقطاره ويسخر رجاله ، ويستغل أرزاقه ، فكان على المصلحين أن ينبهوا الشرقيين إلى الخطر ، وأن يصيحوا فيهم صيحة مخلصة إلى الوعى واليقظة فيقول الكواكبى :

أدعوكم ،وأخصُّ منكم النُّجَباءَ للتبصُّر والتَّبْصير فيما إليه المصير . أليسَ مطلق العربىِّ أخفَّ استحقاراً لأخيه من الغربىّ هذا الغربىُّ قد أصبح ماديًّا لا دِينَ له غيرُ الكسب ؛ فما تظاهُرُهُ مع بعضنا بالإخاء الدِّينىّ إلاَّ مخادعةً وكَذِباً . هؤلاء الفرنسيسُ يطاردُون أهلَ الدِّين ويَعْمَلُون على أنهم يتناسَوْنه. بناءً عليه لاتكونُ دَعْوَاهم الدِّين فى الشَّرق إلّا كما يُغرِّد الصَّيَّادُ وراءَ الأشْباك . الغربىُّ أرقى مِنَ الشَّرْقىّ علماً وثروةً ومنْعَةً ، فله على الشرقيِّين إذا واطَنَهُم السيَّادةُ الطبيعيّةُ .

---

(١) العجب : الزهو والخيلاء .

(٢) « طبائع الاستبداد » ص ٨٢ .

أمّا الشَّرقيُّون فِيما بَيْنَهُم فمتقاربون لا يَتغابَنُون. الغربيُّ يَعرِفُ كَيْفَ يَسُوسُ وكيف يتمتَّعُ، وكيف يأسرُ وكيف يَسْتأثِر. فمتى رأى فيكم استعدادًا واندفاعاً لمجاوَرتِه أو سَبْقِهِ ضَغَط على عقولكم لتبقَوا وراءه شوطاً كبيراً كما يفعل الرُّوس مع البولونيِّين، واليهود والتاتار. وكما هُو شأنُ دول الاستعمار الغربيّ، مَكَث في الشَّرْق لا يَخرُجُ عن أنَّهُ تاجِرٌ مُستَمتِعٌ فيأخذُ فَسائلَ[1] الشَّرق ليغرسها في بلده التي لا يَفْتأُ يفتخر برياضها ويحنّ إلى أرْباضها.

قد مضى على الهولانديين في الهِنْد وجزائرها، وعلى الرُّوس في قازان مثل ما أقمنا في الأندلس. ولكن ما خدَمُوا العلمَ والعمرانَ بِعُشْرِ ما خدمناهما. ودخلَ الفرنساويون الجزائرَ مُنذُ سبعين عاماً ولم يسمحوا بعدُ لأهلها بجريدةٍ واحدةٍ تُقرأ. نَرَى الإنكليزيَّ في بلادنا يُفضِّلُ قديدَ[2] بِلاده وسمكَ بِحاره على طريِّ لحمنا وسمكنا. فهلاَّ، والحالة هذه، تُبصِرُون يا أولى الألباب[3]!!

أيها الشرق العظيم

وهذا وصف عظيم للشرق وإكبار لأرضه وسمائه ومائه، ونداء إلى حبه وتعشقه. ففيه أحسن ما في الدنيا وأجمل ما في الكون، من دين وعقيدة وخلق متين، وفيه غنى وثروات لا تحصى، يعدد منها الكواكبي في أسلوبه اللطيف فيقول:

وأنتَ أيُّها الشّرقُ الفخيمُ، رعاكَ اللهُ! ماذا دهاك؟!. ماذا أقْعدَكَ عن مَسْراك؟ أليست أرضُك تلك الأرضَ ذاتَ الجِنان والأفنان ومنبتَ العلم والعرفان

(١) الفسيلة: النخلة الصغيرة تقلع من الأرض أو تقطع من الأم فتغترس، جمعها فسائل وفسيل.

(٢) القديد: اللحم المقدد أي المجفف.

(٣) «طبائع الاستبداد» ص ١١١.

وسماؤك تلك السَّماء مصْدَرَ الأنوار ومهبطَ الحِكْمة والأدْيان . وهواؤك ذاك النَّسيمَ العدلَ لا العواصفَ والضَّباب . وماؤك ذاك العَذْبَ الغَدق[1] لا الكَدِر ولا الاجاج .

رعاكَ اللهُ ، يا شَرْق . ماذا أصابكَ فأخلَّ نظامَك . والدَّهرُ ذاك الدهر ماغيَّر وضعَكَ ولا بدَّلَ شَرْعَه فيك . ألم تزَلْ مناطقُكَ هى المعتدلة ، و بنــوك هم الفائقون فِطْرةً وعدداً . أليس نظامُ اللهِ فيك على عهدهِ الأوّل ، ورابطةُ الأدْيان فى بَنيك محكمةً قويمةً مؤسَّسةً على عبـادةِ الصَّانعِ الوازع . أليستْ معرفةُ المُنْعِمِ حقيقةً راهنةً أشرقتْ فيكَ شمسُها ، أبْدَتْ بها عِزَّ النّفْسِ وأحْـكَمَتْ بها حُبَّ الوطن وحُبَّ الجِنْس !

رعاكَ الله ، يا شَرْق . ماذا عَرَاك وسَكّن منك الحراكَ . ألم تزل أرضُـك واسعةً خِصْبة ، ومعادنُك وافيةً غنيّةً وحيوانُك رابياً[2] متناسلاً ، وعمرانُك قائماً متواصلاً ، و بنُوك على ما ربَّيْتَهم أقْرَبَ للخير من الشرّ . أليس عندهم الحلْمُ المسمَّى عند غيرهم ضَعْفاً فى القلب ، وعندهم الحياء المسمَّى بالجبانة[3] وعندهم الـكرم المسمَّى بالإتلاف ، وعندهم القَناعة المسماة بالعَجْز ، وعندهم العِفَّة المسماة بالبلاهة ، وعندهم المجاملة المسماة بالذُّل[4] .

---

(١) الغدق : الماء الكثير . الأجاج : الملح المر من الماء كماء البحر .
(٢) ربا يربو : زاد ونما ، وربا الفرس انتفخ من عدو أو فزع .
(٣) جبن جبناً وجبانة فهو جبين ، ضعيف القلب .
(٤) «طبائع الاستبداد» ص ١١٢

٢ – الكواكبي السياسي

المستبد

كتاب « طبائع الاستبداد » كله صيحات فى وجه المستبد والظالم ، ودعوة المظلوم والمحكوم والضعيف إلى أن يتيقظو ويطالبوا بحقوقهم المغتصبة بالاستعداد فهو يدفع الاستعباد ، وهو يضرب الأمثال هنا فى صور جميلة أدبية فيقول :

المُسْتَبِدُّ يَتَحَكَّم فى شُئُونِ النَّاس بإرادتِه لا بإرادتهم ، ويحاكمُهم بِهَوَاهُ لا بشريعتهِم . ويعلم مِنْ نفسِه أنَّه الغاصبُ المتعدِّى فيضع كعبَ رِجْله على أفواهِ الملايين من النَّاس يسدُّها عن النُّطْق بالحقِّ والتَّداعى لمطالبته .

المستبدُّ عدُوُّ الحق، عدُوُّ الحرية وقاتلُهما . والحقُّ أبو البَشَر والحريَّة أُمُّهم والعوامّ صبيةٌ أيتامٌ نيام ! لا يعلمون شيئاً . والعلماء هم إخوتُهم الراشدون إنْ أيقظوهم هَبُّوا وإن دَعَوْهم لَبُّوا .

المستبِدُّ يتجاوزُ الحَدّ لأنَّه لا يَرى حاجِزاً ، فلو رأى الظّالم على جَنْب المظلوم سيفاً لما أقْدَم على الظُّلْم ، كما قيل : الاستعداد للحرب يَمْنَعُ الحرب .

المُستبدُّ إنْسانٌ مستعِدٌّ بالفطْرةِ للخير والشّرّ ، فعلى الرَّعِيَّة أن تكونَ مستعِدّةً لأن تعرفَ ما هو الخيرُ وما هو الشَّرّ ، مستعدَّةً لأن تقول لا أريد الشرّ ، مستعدَّة لأن تَتَبَّع القولَ الذى ليس وراءه إلَّا العمل . والقولُ بلا فعلٍ[1] موجةٌ فى الهواء ، على أن مجرّدَ الاستعدادِ للفِعْل يكفى شَرَّ الاستبداد .

المستبدُّ إنسانٌ، والإنسانُ أكثَرُ ما يألفُ الغَنَمَ والكِلابَ، فالمستبدُّ يوَدُّ أن تكونَ رعيَّتُه كالغَنَم ذراً وطاعة، وكالكلاب تذلُّلاً وتملّقاً . وعلى الرعيَّة

---

(١) هذه الجملة مصحفة فى الأصل قد وردت كما يلى : « والقول أفعل هو موجة فى الهواء » فلعلها كما صوبنا .

أن تكون كالخَيْل إنْ خُدِمَتْ خَدَمَت و إن ضُرِبتْ شرست . بل عليها أن تعرفَ مقامها ؛ هل خُلِقَتْ خادمةً للمستبدِّ أم هى جاءت به ليخدمَها فاستَخْدَمَها[1] .

الاستبداد السياسى والدينى

يرجع الكواكبى أكثر الغفلة والفتور والنوم فى الشعوب المسلمة إلى سيرها وراء التدين الزائف وبعدها عن فهم الإسلام الصحيح والتعاليم السامية ، فيتناول فى كلامه الكتب المقدسة وما فيها من تهديد ووعيد ، ليشرح علتها وأسبابها ، ويبين خطل الرأى فى فهمها ، فيقول :

قَدْ تضافَرَتْ آراءُ أكثرِ المحرِّرين السِّياسيِّين من الأفرنج على أنَّ الاستبداد السِّياسىّ متولِّدٌ من الاستبدادِ الدِّينىِّ . والبعضُ القليلُ منهم يقولُ : إنْ لم يكن هُناكَ توليدٌ فلا شكَّ أنهما أخَوَانِ أو صِنْوانِ[2] قوِيّان ، بينهما رابطةُ الحاجَةِ على التَّعاون بتذليل الإنسان والمشاكلة بينهما ظاهِرَة ، من أن أحدَهما حاكمٌ فى عالَم القلوب والآخرَ مُتحَكِّمٌ فى مملَكَة الأجْسام . والفريقان مُصيبانِ فى حُكْمِهما بالنَّظر إلى أساطير الأوّلين ، والقسْمِ التَّاريخىّ من التَّوْراة والرسائلِ المُضَافة إلى الإنْجِيل . وهم مخطِئُون مطلقاً فى حقِّ الأقسامِ التعليميَّةِ منها كما هم مخطِئُون فى نَظرِهم : أنَّ القرآنَ جاء باستبدادٍ مُؤَيِّدٍ للاستبدادِ السِّياسىّ ، أو مُؤَيَّدٍ به ؛ ولعلَّهم يُعذَرُون إذا قالوا : نحن لا نُدْرِكُ دقائقَ القرآن نظراً لخفَائها علينا ، فى طىّ إشاراتِه وبَلاغته ، وإنَّما نَبْنى نَتيجتَنا على مُقَدّمات ما نُشاهِدُ عليه المسلمين اليومَ من اُستِعانَةِ مُسْتَبِدِّيهم بالدِّين .

يقولُ هؤلاء المحرّرون إنّ التَّعاليمَ الدِّينيّةَ ومنها الكتب السماويَّة تَدعو

---

(١) « طبائع الاستبداد » ص ١٠ .

(٢) صنوان : مثنى صنو وهو الأخ الشقيق وكل فرعين لأصل واحد .

البشَر إلى خَشْيةِ قُوَّةٍ عظيمةٍ هائلةٍ لا تُدْرِكُ كنهها العقول ، تَتَهَدَّدُ الإنسانَ بكلّ مُصيبةٍ فى الحياةِ وعذابٍ مديدٍ أو خالدٍ بعد المماتِ تهديداً ترتعِدُ منه الفرائِص ، فتخورُ القوَى وتنذهلُ منه العقولُ فتستسلمُ للخَبَل والأوْهام ، ثم تفتحُ هذه التَّعاليمُ أبواباً للنَّجاةِ من تِلْك المخاوف ، عليها حجابٌ من البَشَر هُم الأحبارُ والقُسُسُ والمَشايخ ، ودخوليتها التَّعْظيم الرّاسِب بالقلب والقالب ، أى تقديم جزيةِ احترامٍ مع ذلّةِ اعترافٍ أو ثمن غُفْران ، أو كفالة الرِّزق من بيتِ المالِ لأولئك الحُجَّاب الذين بعضهم يَحجُزُون حتّى الأرواحَ من لِقاء ربّها ما لم يأخذوا عنها رسومَ المرور إلى القبورِ وفديةَ الخلاصِ من الاعتراف[١] .

الحكومة المستبدة

كانت الحكومة العثمانية صورة للانحلال والظلم ، تحكم البلاد بعقول مريضة وشهوات ملحة ، ومن حولها جنود من المتملقين والمادحين ينعمون على حساب الشعوب المحكومة والأمم المتهدمة ، لا يجدون فى الحياة إلا منافعهم وأهواءهم ، سواء فيهم الوزير الأعظم أو المستخدم الصغير ، يظهرون غير ما يبطنون ، فيخدعون وهم المخدوعون ، وذلك ما آل بالدولة إلى المرض فالموت ، وهو ما يصفه الكواكبى ببراعته وكياسته فيقول :

الحكومةُ المستبدةُ تكونُ طبعاً مستبدَّةً فى كلّ فروعِها ؛ من المستَبِدّ الأعظمِ إلى الشُّرْطِيّ ، إلى الفرّاش ، إلى كنّاس الشوارع ، ولا يكونُ كلُّ صنفٍ إلاّ من أسْفلِ أهْلِ طبقته أخلاقاً . لأن الأسافلَ لا يهمُّهم جلبُ محبَّة الناس إنما غايةُ مَسْعاهم اكتسابُ ثقةِ المستبدّ فيهم بأنّهم على شاكِلَته[٢] وأنصارٌ لدولته ، وشَرِهُون لأكل السَّقطات من ذبيحة الأمَّة .

وبهذا يأمنُهم ويأمنُونَه فيشاركهم ويشاركُونه . وهذه الفئةُ المستبدةُ يكثر

---

(١) « طبائع الاستبداد » ، ص ١٢ .

(٢) على شاكلته : على نحوه وغراره .

عددُها و يقلُّ حَسَبَ شدّةِ الاستبدادِ وخِفّته . فكلما كان المستبدُّ حريصاً على العسْف احتاجَ إلى زيادةِ جَيْشِ المُتَمَجِّدِين العاملينَ له والمحافظينَ عليه، واحتاجَ إلى الدِّقّة فى اتِّخاذِهم من أسْفَلِ السَّافلين الذين لا أثر عندهم لدِينٍ أو وجدان ، واحتاجَ لحفْظ النِّسْبة بينهم فى المراتِبِ بالطريقة المحكومةِ وهى أن يكون أسْفَلُهم طِباعاً أعلاهم وظيفةً وقُرْباً .

إنَّ العقلَ والتَّاريخَ والعيانَ كلٌّ يشهَدُ بأنَّ الوزيرَ الأعْظَم المستبِدَّ هو اللئيمُ الأعظم فى الأمة ، ثمَّ مَنْ دُونَه من الوزراء يكونون دُونَه لُؤْماً . وهكذا تكونُ مراتبُ لؤمهم حسَبَ مراتِبِهم فى التَّشريفات . وربما يغترُّ المُطالعُ كما اغترَّ بعضُ المؤرِّخين البُسطاء بأنَّ كثيراً من وزراء المستبدِّين كانوا يتأوَّهُون من المستبِدِّ ويتشكَّوْنَ من أعمالِه ، ويجهَرُون بِمَلامه ، ويُظْهِرُون لو أنَّه ساعدهم الإمكانُ لعملوا وفعلوا وافْتَدَوْا الأُمّةَ بأموالِهم بل وحياتِهم . فكيف والحالةُ هذه يكونُ هؤلاء أكثرَ الأمّة لؤماً بل: وكيف ذلك ومنهم الذين خاطرُوا بأنفسهم والذين أقْدَموا على مقاومة الاستبدادِ فنالوا المُرادَ أو بعضه أو هلكوا دونه [١] .

---

(١) «طبائع الاستبداد» ، ص ٤٦ .

الاستبداد والمجد

رجع الكواكبي إلى خزانة العرب وآثار الغرب . فنقل أقوالا فى الاستبداد والظلم والمستبدين ، ورسم طريق المجد ضد الاستعباد ، فجاءت نقوله قريبة من كتب السياسة التى كانت تؤلف فى العصور الأولى للإسلام تجمع بين الأدب والحكمة ودفع الظلم ، وهذا بعض ما جاء فى كتابه :

وهذا « نيرون »[١] سأل « آغربين »[٢] الشاعر ، وهو تحت النَّطْع[٣] ، مَنْ أشقى النَّاس ؟ فأجابهُ مُعَرِّضاً به : مَنْ إذا ذَكَر النَّاسُ الاستبدادَ كانَ مِثالاً له فى الخَيال . وكان «تراجان»[٤] العادل إذا قَلَّدَ سيفاً لقائدٍ يَقولُ له: هذا سيفُ الأُمَّة أرجو أن لا أَتَعدّى القانونَ فلا يكون له نصيبٌ فى عُنُق . وخَرَجَ « قيس » من مجلس « الوليد » مُغْضَباً يقول : أتريد أن تكون جَبَّاراً ! واللهِ إنَّ نعالَ الصَّعاليكِ لأطْوَلُ مِنْ سَيفك . وقيل لأحد الأُباة : مافائِدَةُ سَعْيك غير جلْب الشّقاء على نَفْسِكَ ؟ فقال : ما أحْلَى الشّقاءَ فى سبيلِ تنغيص الظالمين . وقال : علىَّ أن أفىَ بوظيفتى وما علىَّ ضمانُ القضاء .

وقيل لأحدِ النُّبلاء : لماذا لا تَبْنِى لك داراً ؟ فقال : ما أصْنَعُ فيها وأنا المقيمُ

---

(١) « نيرون » Néron إمبراطور رومانى حكم ٥٤ — ٦٨ للميلاد ، وسار أول الأمر سيرة حسنة ، ولكنه راح بعد ذلك يفتك بمن حوله فقتل « بريتانيكوس » و « أغريبين » و « أوكتافيا » زوجته فاشتهر بقسوته ، وقد هجاه الشاعر الفرنسى «راسين» على لسان « أغريبين » بشعر شديد الأسر .

(٢) ذكر الكواكبى أن « أغريبين » رجل شاعر عاصر نيرون وحدثه وأنذره . ولعله وهم فإن « أغريبين » Agrippine هى أم « نيرون » أعانته فى الصعود إلى العرش ثم دبر لقتلها وكانت شجاعة حين الموت .

(٣) النطع : بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس .

(٤) وهنا ورد اسم الامبراطور الرومانى « تراجان » Trajan مصحفاً إلى « ترابان » وقد حكم الرجل من ٩٨ — ١١٧ للميلاد . وكان إدارياً حازماً .

على ظَهْرِ الجَوادِ أو فى السِّجْنِ أو فى القبر! وهذه ذاتُ النِّطاقَين ، أسماء [١] بنت أبى بكر رضىَ الله عنها ، وهى امرأة عجوز تودّع ابنها الوحيدَ بقولها : إنْ كنْتَ على الحقِّ فاذهبْ وقاتِل الحَجَّاجَ حتّى تموتَ .

والحاصِلُ أن المجدَ هو المجد مُحَبَّبٌ للنفوس ، لا تفتأ تَسعى وراءَهُ وتَرْقى مراقيَه . وهو مُيسَّرٌ فى عهدِ العَدْل لكلّ إنسانٍ على حسبِ استعدادِه وهمَّته ، وينحصرُ تحصيلُه فى زَمَنِ الاستبداد بمقاومةِ الظلم على حسب الإمكان [٢] .

تعزيز السلطان

وهنا عاد الكواكبى إلى الكتب المقدسة فنقل من التوراة والحديث النبوى ، وختم بالقرآن الكريم ليبسط الآراء فى الاستبداد ، وخطأ العامة فى فهمها وتفسيرها وتأويلها مما يشجع المستبد ويعزز السلطان ، وهذه النقول كذلك ألصق بكتب السياسة القديمة ، يقول :

وكلُّ هذه المسليات المثبِّطات [٣] تهُون عندَ ذلك السُّمِّ القاتِل الذى يُحَوِّلُ الأذهانَ عن التماسِ معرفةِ سببِ الشَّقاء ، فيرفع المسؤوليّةَ عن المستبدين ويُلْقيها على عاتق القضاء والقَدَر ، بل على عاتقِ الأسراء المساكين أنفسِهم .

وأعنى بهذا السُّمِّ سوءَ فهمِ العوامّ ، وبُلْهِ الخواصّ لما ورد فى التَّوْراة من نحو : « اخضعوا لِلسُّلْطان ولا سلطةَ إلاَّ من الله » و « الحاكم لا يتقلّدُ السّيفَ جُزافاً إنّه مُقام للانتقامِ من أهل الشَّرِّ » ، ولما ورد فى الرّسائلِ من نحو : « فلتَصْغِ كلُّ نسمة للسُّلْطة المقامة من الله » . وقد صاغ وعّاظُ المسلمين ومحدّثُوهم من ذلك قولهم : « السُّلطانُ ظِلُّ اللهِ فى الأرض » و « الظّالم سيفُ الله يَنْتَقِمُ

---

(١) أسماء بنت أبى بكر من قريش ، صحابية من فضليات نساء العرب وهى أم عبد الله ابن الزبير بن العوام ، توفيت بمكة ٧٣ هـ ، وسميت ذات النطاقين لأنها صنعت للنبى المصطفى طعاماً حين هاجر إلى المدينة ، فلم تجد ما تشده به فشقت نطاقها وشدت به الطعام .

(٢) « طبائع الاستبداد » ، ص ٣٦ .

(٣) ثبطه ثبطاً وثبطه تثبيطاً : عوقه عن الأمر وبطأ به عنه .

به ثم ينتقم منه » و « الملوك مُلْهَمُون » . هذا وكلّ ما ورد فى هذا المعنى — إن صَحّ — فهو مُقَيَّدٌ بالعدالةِ أو مُحْتَمِلٌ للتَّأويل بما يعقل ، وما ينطبقُ على حكم الآية الكريمة التى فيها فصل الخطاب وهى ﴿ أن لَعْنَةُ اللهِ على الظَّالِمِين ﴾[1] وآية : ﴿ فلا عُدْوَان[2] إلاَّ على الظَّالِمِين ﴾[3] .

الأتراك والعرب

ويلاحظ الكواكبى أن جميع الأعاجم التى قامت لهم دول فى الإسلام كآل بويه والسلجوقيين والأيوبيين والغوريين والجراكسة وآل محمد على استعربوا وتخلقوا بأخلاق العرب . ولم يشذ منهم غير المغول أى الأتراك العثمانيين فإنهم يفخرون بمحافظتهم على استتراكهم ، ولم يقبلوا أن يستعربوا ، وإنما قبلوا أن يصبحوا فرنسيين وألماناً ، وسبب ذلك كرههم العرب ، فقد كان الأتراك شجعاناً مقاتلين ولم يكونوا ساسة عادلين فزادوا العالم الإسلامى تدهوراً وظلماً وجهلا وظلماً وفقراً ، كما قال الأستاذ أحمد أمين ، بل إنهم احتقروا العرب وتناولوهم بالسباب ونبذوهم بالألقاب مما ننقل بعضه هنا :

ولا يُعقَلُ لذلك سببٌ غيرُ شديدِ بغضهم للعرب كما يُسْتَدَلُّ عليه من أقوالِهم التى تَجْرِى على ألسنَتِهِمْ مَجْرَى الأمثال فى حَقِّ العرب .

ذلك كإطلاقِهِمْ على عربِ الحجاز « ديلنجى عرب » أى العرب الشَّحَّاذين ، وإطلاقهم على عربِ المصريين « كورفلاح » بمعنى الفلاّحين الأجلاف ، « وعرب جِكنه سى » أى نَوَر العرب ، و « قبطى عرب » أى النوَر المصريين ، وقولهم عن عرب سوريا « نه شامك شكَرىونه عَربِك يُوزى » أى « دع الشام وسكّرياتها ولا ترَ وجوهَ العرب » وتعبيرهم بلفظة « عرب » عن الرّقيق وعن كل

---

(١) « القرآن الكريم » – سورة الأعراف ٧ / ٤٤ ، وقد كانت فى الأصل : « ألا لعنة » وهو تصحيف .

(٢) فى رسم الآية هنا تصحيف كذلك : « ولا عدوان » وصحتها كما رسمنا – « القرآن الكريم » سورة البقرة ٢ / ١٩٣ .

(٣) « طبائع الاستبداد » ، ص ٩٠

حيوانٍ أسود. وقولهم « بِيس عرب » أى عرب قذر ، و « عرب عقلى » أى عقل عربىّ ، أى صغير . و « عرب طبيعتى » أى ذوق عربى ، أى فاسد ، و « عرب چكه سى » أى حنك عربى ، أى كثير الهذر . وقولهم « بونى يپارسه م عرب أوله يم » أى إنْ فعلتُ هذا أكنْ من العرب . وقولهم « نَرْدَه عرب نَرْدَه طنبوره » أى أين العرب من الطنبور !

هذا والعرب لا يقابلونهم على كلّ ذلك بسوى كلمتين هى قول العرب فيهم : « ثلاثٌ خُلِقْنَ للجَوْر والفَسَاد : القملُ والتُّركُ والجَراد » . والكلمة الثانية تسميتهم بالأروام كناية عن الريبة فى إسلامهم . وسبب الرّيبة أن الأتْراك لم يخدموا الإسلام بغير إقامة بعضِ جوامعَ لولا حظّ نفوس ملوكِهم بذكرِ أسمائهم على منارِها لم تقم. وأنّهم أتوا الإسلام بالطَّاعةِ العمياء للكبراء ، و بخشية الملك أبى المصائب ، و باحترام مواقد النيران (أوجاقات) فزادوا بذلك بلاّت فى طينِ الخُرافات[1] .

موطن قريش

أحب الكواكبى أمة العرب حبا جما ملك عليه لبه ، وعشق الجزيرة العربية التى انطلقوا منها فاتحين حتى استهوته فسافر إليها وتنقل فى ربوعها ، ورأى فيها موطن العزة والكرامة والأمجاد ، فسعى إلى أن يجتمع فيها رجال المسلمين من كل قطر وأن يتشاوروا فى أمرهم لكل حين ، وعقد اجتماعاته فى كتابه بمكة ، وجعل عنوانه « أم القرى » دليلا على هذا الحب وهذه السياسة التى يكاد ينفرد بها بين معاصريه من الزعماء المصلحين والكتاب المفكرين ، فهو لا يرى للمسلمين عوداً إلى أمجادهم إلا إذا كانت الخلافة فى العرب وفى مكة المكرمة ، ولذلك أرسل هذا النشيد الجميل فى مدحها يتغنى به قلبه وتتنفس به ضلوعه :

١ — الجزيرةُ . هى مشرقُ النُّور الإسلامى .

٢ — الجزيرة . فيها الكعبةُ المعظَّمة .

---

(١) « أم القرى » ، ص ٧٨ .

٣ — الجزيرةُ . فيها المسجِدُ النبوىّ وفيه الرّوضة المطهَّرة .

٤ — الجزيرة . أنسبُ المواقعِ لأن تكون مركزاً للسِّياسةِ الدينيّة لتوسّطها أقصى آسيا شرقاً وأقصى أفريقية غرباً .

٥ — الجزيرة . أسْلَمُ الأقاليمِ من الأخْلاطِ الجنسيّة أدياناً ومذاهب

٦ — الجزيرة . أبعدُ الأقاليمِ عن مجاورةِ الأجانب .

٧ — الجزيرة . أفضلُ الأراضى لأن تكونَ ديارَ أحرارٍ لبعدها عن الطّامعين والمزاحمين نظراً لفقْرِها الطبيعى .

٨ — عربُ الجزيرة . هم مؤسّسو الجامعة الإسلامية لظهور الدِّين فيهم[1] .

٩ — عربُ الجزيرة . مستحكمٌ فيهم التخلُّقُ بالدِّين لأنه مناسبٌ لطبائعِهم الأهلية أكثر من مناسبتهِ غيرهم .

١٠ — عربُ الجزيرة أعْلَمُ المسلمينَ بقواعدِ الدِّين لأنهم أعْرَقُهم فيه ، ومشهودٌ لهم فى أحاديثَ كثيرَةٍ بالمتانة فى الإيمانِ .

١١ — عربُ الجزيرة . أكثرُ المسلمينَ حِرصاً على حفظِ الدِّين وتأييدِه والفَخارِ به ، والعصبِيَّة النبَويّة لم تزل قائمةً بين أظهرِهم فى الحجازِ واليمن وعمان وحضرمَوْت والعراق وأفريقيا .

١٢ — عربُ الجزيرة . لم يزل الدِّين عندهم حنيفاً سلفيًّا بعيداً عن التّشديدِ والتّشويش .

---

(١) كذلك من يتبعهم من العشائر القاطنة بين الفرات ودجلة والنازحين إلى أفريقيا .

١٣ — عربُ الجزيرة . أقوَى المسلمين عصبيَّةً وأشدّهم أَنَفَةً لما فيهم من خصائصِ البدوية (١) .

١٤ — عربُ الجزيرة . أمراؤهم جامِعُون بين شرَفِ الآباء والأمَّهات والزَّوجات فلم تختلّ عزّتهم .

١٥ — عربُ الجزيرة . أقدمُ الأمم مدنيَّةً مهذّبةً بدليل سعة لغتهم وسموّ حكمِتهم وأدبيَّاتِهم .

١٦ — عربُ الجزيرة . أقْدَرُ المسلمين على تحمل قشفِ المعيشة فى سبيلِ مقاصدهم ، وأنشطهم على التغرُّب والسِّياحات ، وذلك لبُعْدِهم عن التَّرَفِ المُذلِّ أهْلَه .

١٧ — عربُ الجزيرة . أحْفَظُ الأقوامِ لجنسيَّتهم وعاداتِهم ، فهم يخالطُون ولا يختلطون .

١٨ — عربُ الجزيرة . أحْرَصُ الأممِ الإسلاميَّة على الحرّيّة والاستقلال وإباء الضَّيْم (٢) .

١٩ — العربُ على الإطلاق . لغتُهم أغْنَى لغاتِ المسلمين فى المعارف ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت.

٢٠ — العربُ . لغتُهم هى اللغة العموميَّة بين المسلمينَ البالغ عددهم ٣٠٠ مليون.

٢١ — العربُ . لغتُهم هى اللّغةُ الخصوصيّة لمائةِ مليون من المسلمين وغير المسلمين .

---

(١) وبقوة ذلك لا يزالون يأخذون خراجاً ممن يأخذون باسم هدية .

(٢) هذا هو سبب عدم انقياد أهل اليمن ومن يليهم للعثمانيين

٢٢ — العربُ . أقدَمُ الأممِ اتّباعاً لأصولِ تساوى الحقوق وتقارب المراتِب في الهيئة الاجتماعيَّة .

٢٣ — العربُ . أعْرَقُ الأممِ في أصولِ الشُّورَى[1] في الشُّئون العموميَّة[2] .

العثمانيون والدين

استعرض الكواكبي تاريخ العثمانيين وما فعلوه في المسلمين شرقاً وغرباً ، فجمع مخازيهم ومظالمهم . وبرهن بالوقائع والشواهد على قعودهم عن نصرة الإسلام وعدوانهم عليهم من الأوربيين المستعمرين ، وذلك ليدلل على أن الخلافة يجب أن لا تكون تحت لوائهم وخلافتهم ، وأنهم لا يصلحون أن يكونوا إخواناً مخلصين للمسلمين لأنهم لم يكونوا كذلك في تاريخهم كله . وقد عدد الأسماء من السلاطين العثمانيين في جرأة وصراحة ايزيل آخر وتد لهم في الممالك الإسلامية ، فذهبت صيحاته بهم ، وشهد له التاريخ أنه الكاتب السياسي البليغ والمؤرخ المفكر والمصلح الذي يحب قومه ويكره من يكيد للعرب والمسلمين ، فقال على لسان أحد الأمراء في لاحقة كتابه :

قال الأمير : أرجوكَ أن لا تنظرَ للمسألةِ بنظَرِ العوامّ ، بل بنظرِ حكيمٍ سياسى . فَأَبْعدِ النَّظرَ ماضياً ومستقبلاً ، وقلِّبْ صفحاتِ التاريخ بدقّةٍ تجِدْ أنَّ إدارةَ الدِّين و إدارةَ الملك لم تتَّحدا في الإسلامِ تماماً إلَّا في عهدِ الخلفاءِ الرَّاشدين وعمرَ بنِ عبدِ العزيز فقط ، رضى الله عنهم . واتّحدتا نوعاً ما في الأمويِّين والعبّاسيين ثم افترقت الخلافةُ عن الملك . وأمّا سلاطين آل عثمان الفخام فإنِّى أذكرُ لك أنموذجاً من أعمالٍ لهم أتَوْها رعايةً للملك و إنْ كانتْ مصادمةً للدِّين . فأقول : هذا السُّلطان محمد الفاتح وهو أفضَلُ آلِ عثمان قد

---

(١) يشهد لهم بذلك القرآن في قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام حين قالت تخاطب الملأ المستشارين .

(٢) «أم القرى» ، ص ٩٨ – وتقابل هذه الصفحة بما كتب رشيد رضا في كتابه «الخلافة» ص ٧٣ .

قدَّم الملكَ على الدّين ؛ فاتّفق سِرًّا مع « فرديناند[١] » ملك « الأراغون[٢] » الإسبانيولى ثم مع زوجته « إيزابيلا » على تمكينهما مِنْ إزالةِ مُلْكِ بنى الأحمر ، آخرِ الدُّوَل العربيّة فى الأندلس . وَرضِىَ بالقتلِ العامّ والإكراهِ على التنصّر بالإحراق ، وضياعِ خمسة عشر مليوناً من المسلمين بإعانتهما بإشغالهِ أساطيلَ أفريقية عن نَجْدَةِ المسلمين . وقد فعلَ ذلك فى مقابلةِ ما قامت له به « رومية » من خذلان الإمبراطوريّة الشّرقيّة ، عند مهاجمتِه مقدونيا ثم القسطنطينية . وهذا السّلطان « سليم » غدر بآل العبَّاس واستأصلهم حتى إنَّه قتَلَ الأمّهاتِ لأجل الأجِنَّة . وبينما كان هو يقتلُ العربَ فى الشَّرق كان الإسبانيُّون يُحرِّقون بقيَّتَهم فى الأندلس . وهذا السُّلطان « سليمان » ضايق إيرانَ حتى ألجأهم إلى إعْلان الغلوّ بالرَّفْضِ ؛ ثم لم يقبل العثمانيُّون تكليف « نادر شاه » لرفعِ التفرقة بمجرّد تصديقِ مذهب الإمام جعفر ، كما لم يقبلوا من « أشرف خان » الأفغانى اقتسامَ فارس كى لا يجاورَهم ملكٌ سنّىٌّ . وقد سَعَوْا فى انقراضِ خَمْسَ عَشْرةَ دولة وحكومة إسلامية ، ومنها أنهم أغْرَوْا وأعانوا الرّوس على التَّتار المسلمين ، وهولاندة على الجاوة والهنديين . وتعاقبوا على تَدْويخِ اليمن فأهلكوا إلى الآن عشراتِ الملايين من المسلمين ، يقتل بعضُهم بعضاً ، لا يحترمون فيما بينهم ديناً ولا أخوَّةً ولا مروءة ولا إنسانية ؛ حتى إن العسكرَ العثمانى باغتَ المسلمين مرّةً فى « صنعاء » و « زبيد » ، وهم فى صلاةِ العيد .

وهذا السّلطان « محمود » اقتبسَ عن الإفرنجِ كسوتَهم ، وألزم رجالَ دولته

---

(١) فردیناند الخامس ويسمى الكاثوليكى ، ملك أراغون وقشتالة من ١٤٦٨ – ١٥١٦ ، سياسى محنك تزوج إيزابيلا ليجمع شبه الجزيرة الإسبانية ، وهو الذى حارب العرب واستولى على غرناطة .

(٢) الأراغون Aragon مقاطعة فى الشمال من إسبانيا عاصمتها سرقسطة .

وحاشيته بلبسها ، حتى عَمّتْ أو كادتْ . ولم يشأ الأتراكُ أن يغيّروا منها الأكمامَ رعايةً للدِّين ، لأنها مانعةٌ من الوضوء أو معسرة له . وهذا السلطان « عبد المجيد » رأى من مؤيّدات إدارةِ ملكه إباحةَ الربا والخمور وإبطالَ الحدود . ورأى مصلحته فى قهرِ الأشراف وإذلال السّاداتِ بإلغاء نفوذِ النِّقابات ففعل .

وفى هذا المقدارِ كفايةٌ لإيضاح قاعدة أنّ مؤيدات الملك عند السّلاطين مُقدَّمٌ على المحافظة على الدِّين[1] .

السلطان العثمانى

وصف الكواكبى حال الأمة الإسلامية وممالكها وملوكها بدقة المؤرخ السياسى الحاذق ، ورسم القوم الذين يحيطون بالسلطان العثمانى فى خداعهم وتملقهم وتزلفهم واختلاقهم الألقاب واختراعهم الأنساب حتى لقد نقل ما كان من كذبهم على التاريخ الإسلامى ، حين جعلوا نسبة الأتراك إلى قريش لتكون الخلافة فيهم . وقد حدث ذلك فى كثير من ظروف تاريخنا وكان يحدث إلى وقت قريب . ولكن مؤلفنا مزق الحجب والأستار وأوضح الزائف والمدسوس ليكون العرب على بينة من أمر خلافتهم وسلاطينهم ، وفى ذلك جرأة المصلح وصيحة الزعيم المخلص ، يقول :

وهؤلاءِ الغشّاشُون يُغرُونَ حضرة السُّلطان بهذه الدعوى ، بما يهرفُونَ به عليه ، وبما يؤلفونه هم وأعوانُهم من الكتب والرّسائل ، التى يعزُون[2] بعضَها لأنفسهم وبعضَها لغيرِهم من المنافقين ، أو لأسماء يُسَمُّونها ، أو كتب يختلقونَها . فيجعلونَ تارةً آلَ عثمانَ العِظام يتّصلون نسباً بعثمان بن عفّان — رضى الله عنه — وأُخْرى يرفعون نسبَهم إلى أعالى قُريش ، ويعطُونها حقّ الخلافة مرّةً بالتّنازل والإدلاء من العباسيين ، وأُخرى بالاستحقاق

---

(١) « أم القرى » ، ص ١٠٣ .

(٢) عزا إليه كذا : نسبه .

والوراثة ، وآونةً بالعهد ، وأخرى بالبَيْعة العامة ؛ وحيناً بخدمة الحرَمَيْن الشَّريفَيْن ، ووقتاً بحفظ المخلّفات النبويّة . وكأنَّ هؤلاء الغشّاشين يُريدون بهذه الدَّسائسِ أن يجعلوا حَضرةَ السُّلْطان نظيرَهم دعىَّ نسبٍ كاذبٍ كدعواهم لأنفسهم السّيادة ، ومتسنِّم مقامٍ موهومٍ كدعواهم الولاية والقطبانية فى أنفسِهم وآبائِهم وأجدادِهم ، فيحشونَ فى تلك المؤلَّفاتِ أنساباً انتحلُوها لأنفسهم ، مقرونةً بنسب السُّلْطان . ويستطردُون لحكاياتِ كراماتٍ لأجدادهم ملفّقةً مخترعةً لا يَعْتَرِفُ بها لهم أحدٌ من المسلمين ، يدسّونها بين حكاياتِ وقائعِ الخلفاء والسَّلاطين .

ومن المعلومِ عند أهلِ الوقوف أن التلقّبَ بالخلافة أو الإمامة الكبرى ، أو إمارة المؤمنين فى آل عثمان العِظام ، حَدَثَ فى عهد المرحوم السلطان « محمود » إذْ صار بعضُ وزرائِه يخاطبونَه بذلك أحياناً تفنُّناً فى الإجلال ؛ وغَلَوْا فى التَّعظِيم . ثم توسَّع استعمالُ هذه الألقابِ فى عهد ابنَيْه وحفيدَيْه ، إلى أن بلغ ما بلغه اليوم بسعى أولئك الغشّاشين الذين يدفعون ويقودون السُّلْطان الحاضر للتنازلِ عن حقوقٍ راسخةٍ سلطانية ، لأجل عنوان خلافة وهميّة مقيّدة ، فى وضعها بشرائطَ ثقيلةٍ لا تلائمُ أحوالَ الملك ، ومعرضة بطبعها للقلقلةِ والانتزاعِ والخطرِ العظيم . ولذلك لا يزال السَّلاطينُ أنفسُهم إلى الآن يأبَوْن التلقّب بالخلافة رسميًّا فى منشوراتهم ومسكوكاتهم ؛ وإنما تمضغُها أفواهُ البعض فيلوكها التركىُّ تعظيماً لقومه ، والعربىّ نفاقاً لسلطانه ، والمصرىُّ اتباعاً للمرائين ، والهندى اعتزازاً بالوَهْم ، والأجنبىّ هزؤًا ومكراً ، بخلاف سلطان مراكش وأمير عمان ، وإمام اليمن المتنازعين فى هذا المقامِ رسماً ، المتقاطعين لأجله . على أنَّهم قد شعروا أو كادوا يشعرون بضررِهم السياسىّ فى

ذلك . ولا نعلمُ متى يخلق الله مَنْ يَسْعى فى إقناعهم جميعاً بِتَرْك هذه الدَّعوى الدَّاعية للانفرادِ والتَّخاذُل ويرتّب بينهم قواعدَ محافظةِ الاستقلال السياسى ومراسم التّشريفات والمخاطبات وروابطِ التّعاون والاتحاد ، بصفة سلاطين وأمراء كما آل إليه الأمرُ على عهد الخلفاء العباسيين مع السلاطين الخارزمية والدَّيْلَم والأيوبيِّين ، وغيرهم[1] .

٣ ــ الكواكبي الاجتماعى.

الإنسان والمدنية

تعمق الكواكبى فى فلسفة الاجتماع فنظر إلى الإنسان والحيوان ، ووازن بينهما فانتهى إلى إيثار الحيوان لأنه يحب أخاه ، والإنسان يأكل لحم أخيه الإنسان ، وضرب الأمثلة الطيبة على ذلك فاستعرض تاريخ القربان والذبيحة ، والقبائل المتوحشة فقال :

إنَّ النّظامَ الطبيعى فى كلِّ الحيوانات حتَّى فى السَّمك والهوامّ إلا العنكبوت بعد إخصابه أنَّ النوعَ الواحدَ منها لا يأكلُ بعضُه بعضاً ؛ والإنسان يأكلُ الإنسانَ . ومن غريزتِها أن تلتمسَ الرِّزقَ من الله أى مِنْ مَوْرده الطبيعىّ ، والإنسان حريصٌ على التماسه مِنْ أخيه .

عاش الإنسانُ دهراً طويلاً يأكلُ لحمَ الإنسان فعلاً إلى أن تمكَّنَ حكماء الصّين والهند من إبْطالِ أكل اللَّحم كلّياً ، وإلى أن جاءتِ الشَّرائعُ الدّينيَّةُ الأُولى فى الجهاتِ السّائرة ابتداءً بتخصيصِ ما يُؤكل من الإنسان بالقربان الذى يُذْبَحُ للمعبود . ثم أبقتِ القربانَ وجعلتِ الذّبيحةَ طُعْمةً للنِّيرانِ حتَّى تَدرَّجَ الإنسانُ إلى نِسْيان لَذَّة لحم إخوانه . وقد استبدلَ اللهُ ــ عزَّ شأنُه ــ

---

(١) «أم القرى» ، ص ١٠٥ .

على يد إبراهيم — عليه الصلاة والسلام — قربانَ البشر بالحيوان . واتّبعه موسى و باقى الأنبياء — عليهم السّلام — و به جاء الإسلامُ . أمّا عيسى — عليه السلام — فإنّه استعاض قربانَ الحيوان بالُخبْز ؛ ولـكنْ بقى ذلك مقصوراً على الـكنائس ولم يعمّ .

وهكذا بطل أكلُ الإنسان لحمَ الإنسان ، إلّا عندَ بعضِ قبائلِ الزُّنوج ، فإنّه موجودٌ حتى الآن . على أن الاســتبدادَ المشئومَ أحيا سُنّةَ أكلِ البشر بشكلٍ أدهى وأمرّ . وذلك أنّه جعلَ الأقوامَ طُعْمَةً للظّالمين ، فكان الأوّلون يَذْبحونَ و يأكلون مَنْ يأسرون مِنْ أعدائهم فقط . المستبدّون يأسرون جماعتهم ويَذْبحونَهم قصداً بِمِبْضَع الظلم ، ويمتصّون دماء حياتهم بغَصْبِ أموالهم ، و يقصرون أعمارَهم باستخدامهم سخرةً فى أعمالهم ، أو بغَصْب ثمراتِ أتعابهم ، وهكذا لا فرقَ بين الأولين والآخرين فى نَهْب الأعمار و إزهاق الأرواح إلّا فى الشّـكل[1] .

الاستبداد والمرأة

نقد المؤلف كل ما كان فى مجتمعه الفاسد ، ولم يغفل عن حال المرأة فى عصره ، فهى نصف البشر وهى قوام الرجل وموضع رفعته أو انحطاطه ، لذلك رأى لها من الحقوق ما لا يرى أعمق التقدميين المصلحين اليوم فقال :

إنّ البشرَ المقدّرَ مجموعٌ بألفٍ وخمسمائة مليون ، نصفُهم كَلٌّ على النِّصْف الآخر . و يشكّل أكثريّةُ هذا النّصف نساءُ المدن، والنّساء هنّ النَّوْعُ الذى عُرف مقامُه فى الطبيعةِ بأنّه هو الحافظُ لبقاء الجنس ، وأنّه يَكفى للألفِ منه

---

(١) « طبائع الاستبداد » ، ص ٥٢ .

مُلَقِّحٌ واحدٌ . وأنَّ باقى الذُّكورِ يُساقون للمخاطِرِ والمشاقّ ، أو يستحقّون ما يستحقُّه ذَكَرُ النَّحْل . وبهذا النظر اقتسم[١] النِّساء مع الذُّكورِ أعْمالَ الحياةِ قِسْمةً ضِيزَى[٢] ، وتحكمن بسنّ قانونٍ عام به جعلنَ نصيبهن هَيِّنَ الأشغالِ بدعوى الضَّعْف . وجعلنَ نوعَهن مطلوباً عزيزاً بإيهام العفّة . وجعلنَ الشَّجاعةَ والكَرم سيّئتين فيهن ، محمدتين فى الرِّجال ، وجعلن نوعَهن يُهين ولا يُهان ويَظْلِم أو يُظْلَمُ فيُعان . وعلى هذا القانون يربُّون البناتِ والبنين . ولهذا سمّاهم بعضُ الأخلاقيِّين بالنِّصْف المضرّ ، وقال : إن الضَّررَ يترقّى مع الحضارةِ والمدنيّة على نسبةِ الترقِّى المضاعف ، فالبدويَّةُ تسلبُ الرجلَ نصفَ ثمرة أعماله ، والحَضَريَّةُ[٣] تسلبُ اثنين من ثلاثة ، والمدنيةُ تسلبُ خمسةً من ستة ، وهكذا تترقّى بنتُ العواصم[٤] .

المرأة

شغلت المرأة من تفكير مؤلفنا حيزاً كبيراً فكتب فيها كثيراً ، وقد رأينا كلمته فى « طبائع الاستبداد » ، وهو هنا يرى تعليم النساء لأن العلم لا يدعو إلى الفجور ، والجهل لا يدعو إلى العفة ، وبسط أثر المرأة فى الرجل ومكانها فى التاريخ وموضعها من التربية وقدرتها فى تسيير ركب النهضة الإسلامية قديماً وحديثاً . ثم رسم حقوقها وواجباتها وموقف الزوج منها فقال :

إنَّ لانحلالِ أخلاقِنا سبباً مهمّاً آخرَ أيضاً يتعلّق بالنِّساء . وهو تركُهنَّ جاهلاتٍ على خلافِ ما كان عليه أسلافُنا ، حيثُ كانَ يوجَدُ فى نسائِنا كأمِّ المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — التى أخذنا عنها نصفَ علومِ دينِنا ؛

---

(١) فى الأصل : « اقتسمن » .

(٢) قسمة ضيزى : ناقصة جائرة .

(٣) الحضرية : ساكنة الحضر ، خلاف البادية .

(٤) طبائع الاستبداد ، ص ٥٤ .

وكمئات من الصحابيّات والتّابعيّات راويات الحديث المتفقّهات فضلاً عن ألوفٍ من العالمات والشّاعرات اللاتى فى وجودهنّ فى العهدِ الأول بدون إنكار حجّةٌ دامغةٌ ترغم أنفَ غيرة الّذين يزعُمون أنّ جهلَ النّساء أحفظُ لعفّتهنّ ، فضلاً عن أنّه لايقومُ لهم برهانٌ على ما توهَّمُون ، حتى يصحّ الحُكْمُ بأنّ العلمَ يدعو للفجُور ، وأنّ الجهلَ يدعو للعِفّة . نعم ، ربّما كانت العالمةُ أقْدَرَ على الفُجُور من الجاهلة . ولكن الجاهلةَ أجْسَرُ عليه من العالِمَة ثم إنّ ضررَ جهلِ النّساء وسوءَ تأثيرِه فى أخلاقِ البنينَ والبنَات أمرٌ واضحٌ غنِيٌّ عن البَيَان ؛ وإنّما سوءُ تأثيرِه فى أخلاقِ الأزواجِ فيه بعضُ خَفاء يستلزمُ البَحْث ، فأقول :

إنّ الرِّجالَ ميّالُون بالطَّبْع إلى زوجاتِهم . والمرأة أقْدَرُ مطلقاً من الرَّجُل فى مَيْدانِ التّجاذُب للأخلاق . ولا يتوهَّمُ عكسَ ذلك إلّا مَن استَحْكَم فيه تغريرُ زوجتِه له ، بأنّها ضعيفةٌ مسكينةٌ مُسَخَّرةٌ لإرادتِه ، حالَ كونِ حقيقة الأمرِ أنّها قابِضةٌ على زِمامِه تَسُوقُه كيفَ شاءت . وبتعبيرٍ آخرَ ، يغرُّه أنه أمامَها وهى تتبعُه ، فيظنُّ أنّه قائدٌ لها ؛ والحقيقةُ التى يراها كلُّ النّاس مِنْ حولِهما دونَه أنّها إنّما تَمْشى وراءَهُ بصفةِ سائقٍ لا تابِع . وما قَدَرَ قَدْرَ دَهاء النِّساء مثلُ الشّريعة الإسلاميّة ، حيثُ أَمَرَتْ بالحجْبِ والحجْرِ الشرعيّين ، حَصْرًا لسلطتهنّ وتفرّغهنّ لتدبيرِ المنزل . فأمرتْ باحتجابِهنّ احتجاباً محدودًا بعدم إبداء الزِّينة للرِّجالِ الأجانِب ، وعدمِ الاجتماعِ بهم فى خَلْوَة أو لغيرِ لزوم . وأمرت باستقرارِهنّ فى البيوتِ إلّا لحاجةٍ ، ولا شكّ أنّه ما وراء هذه الحدود إلّا فتْح بابِ الفجور . وما هذا التّحْديد إلّا مرحمةً بالرِّجال وتوزيعاً لوظائفِ الحياة .

والصّينيُّون وهم أقْدَمُ البشَر مدنيّةً التزمُوا تصغيرَ أرْجُلِ البَنات بالضّغْطِ

عليها لأجلِ أن يعسرَ عليهنَّ المشى ، والسَّعى فى إفسادِ الحياةِ الشَّريفة . ذاك الشَّرَف الذى هو من أهمّ مقاصدِ الشرقيِّين بخلاف الغربيِّين ، الذين لا يهمُّهم غيرُ التوسّعِ فى المادِّيات والملذَّات .

وقد أمَرتِ الشّريعةُ برعايةِ الكفاءة فى الزّوج وذلك أيضاً مرحمةٌ بالرِّجال . وأكثرُ الأئمَّة المجتهدين أغفَلُوا لزومَ تحرِّى الكفاءة فى جانبِ المرأةِ للرَّجُل ؛ وأوجبوا أن يكونَ هو كفوًا لها فقط . لكيلا تهلكه بفخارِها وتحكّمها ، على أنّ لرعايةِ الكفاءة فى المرأة بالنِّسْبة إلى الرَّجُل أيضاً موجباتٍ عائليةً مهمةً : منها التخيّر للاستسلام ، والتخيّر لتربيةِ النَّسل ، وللتّساهل فى ذلك دخلٌ عظيمٌ فى انحلالِ الأخلاق فى المدن ، لأن التزوُّج بمجهولاتِ الأصولِ أو الأخلاق ، أو بسافلاتِ الطِّباعِ والعادات ، أو بالغريبات جنساً أو الرّقيقاتِ ، مفاسد شتّى ، لأن الرَّجُل ينجرُّ طوعًا أو كرهًا لأخلاق زوجتِه ، فإنْ كانت سافلةً يتسفَّلُ لا محالة ، وإنْ كانتْ غريبةً بَغَّضَتْ إليه قومَه ، وجرَّتْه إلى موالاةِ قومِها ، والتخلّق بأخلاقهم ولا شك أنّ هذه المفسدةَ تستحكمُ فى الأولادِ أكثر من الأزواج .

وَرُبّما كان أكبرُ مسبّبٍ لانحلالِ أخلاقِ الأمراء من المسلمين أتاهم من جهةِ الأمَّهات والزَّوجات السَّافلات . إذْ كيف يُرجى من امرأةٍ نشأتْ سافلةً رقيقةً ذليلة[1] أن تتركَ بَعْلَها[2] وهو فى الغالبِ أطوعُ لها من خَلْخَالِها أن يُجيبَ داعىَ شهامةٍ أو مروءة أو أن تغرز فى رؤوسِ صِبْيَتِها مقاصدَ ساميةً ، أو تحمّسهم على أعمالٍ خطرة . كلّا لا تفعلُ ذلك أبداً . إنَّما تفعله الشَّريفاتُ

---

(١) كالكرجيات الأرمنيات والرقيقات الجركسيات أمهات أكثر الأمراء وزوجاتهم .
(٢) بعلها : زوجها .

اللاتى يجدنَ فى أنفسهن عزَّةً وشهامة[١] ، وهذا هو سرّ أنّ أعاظمَ الرِّجال لا يوجدون غالباً إلَّا من أبناء و بعولِ نسوةٍ شريفاتٍ أو بيوتٍ قروية . وهذا هو سبب حرص أمراء العرب والأفرنج على شرف الزوْجات[٢] .

توزيع الأراضى

أقام الكواكبى للعدالة الاجتماعية صرحاً منيفاً فى كتابه لبنة بعد لبنة ، ومال إليها بجوانحه ، فتطرق إلى الظلم الذى كان يلف الشرقيين ووصفه وصفاً دقيقاً ، وخاصة توزيع الأراضى ، إذ رأى فيه إجحافاً بالفقراء والفلاحين والعمال والصناع فنادى بما تنادى به أرق الدساتير وأحدث الأنظمة حتى ليأخذ بأساليب الاشتراكية العاقلة ، ويضرب الأمثلة لذلك من التاريخ ، فكأنه من أئمة الإصلاح فى العالم كله لا فى الشرق وحده فيقول :

ثُمَّ نّ التموّلَ لأجلِ الحاجاتِ السّالفة الذكر و بقدرها فقط محمودٌ بثلاثةِ شروط ، و إلَّا كان حرصُ التموّل من أقبحِ الخصال الشَّرْطُ الأوّل : أن يكونَ إحرازُ المال بوجهٍ مشروعٍ حَلال ، أى بإحرازه مِنْ بذْلِ الطبيعة أو بالمعارضة ، أو فى مقابل عملٍ ، أو فى مقابلِ ضَمان .

والشَّرْطُ الثَّانى : أَنْ لا يكونَ فى التموّل تضييقٌ على حاجياتِ الغير كاحتكارِ الضروريات أو مزاحمةِ الصّنّاع والعمّال الضعفاء أو التغلّب على المباحاتِ مثل امتلاكِ الأراضى التى جعلها خالقُها مراحاً[٣] لكافة مخلوقاتِه وهى أُمُّهم تُرضِعُهم لبنَ جهازاتها ، وتغذّيهم بثمراتِها . وتأويهم فى حِضن أجزائها ، فجاء المستبدُّون الظالِمُون الأوّلون ووضَعُوا أصولاً لحمايتِها من أبنائِها ، وحالوا بينهما . فهذه

---

(١) كبنات بيوت المجد الحريصات على الفخر و بنات أهل البادية والقرى الأبيات النفوس . نقلنا هذا من هامش الأصل .

(٢) « أم القرى » ، ص ٨٢ .

(٣) فى الأصل : ممزحاً ، ولعلها مصحفة ، وصحيحها ما رسمنا .

إيرلاندة مثلاً ، قد حماها ألفُ مستبدّ مالىّ من الإنكليز ليتمتعوا بثُلثَىْ أو ثلاثة أرباعِ ثمرات أتعاب عشرة ملايين من البشَر ، الذين خُلقوا من تُرْبَةِ إيرلاندة . وهذه مصرُ وغيرُها تقربُ من ذلك حالاً ، وستفوقها مآلاً . وكم من البشَر فى أوربّا المتمدّنة وخصوصاً فى لندرة ، لا يجدُ أحدُهم أرضاً ينامُ عليها متمدّداً ، بل ينامُون فى الطّبقَة السُّفلَى ، حيثُ لا ينامُ البقَر ، وهم قاعدون صفوفاً ، يعتمدُون بصدورِهم على حبالٍ من مَسَد[1] منصوبةٍ أفقيّة ، فيتلوّون عليها يمنةً ويسرة .

وحكومة الصّين ، المختلّة النِّظام فى نظر المتمدِّنين ، لا تجيزُ قوانينُها أن يمتلكَ الشّخص الواحدُ أكثرَ من مِقْدارٍ معيَّنٍ مِنَ الأرض ، لا يتجاوزُ العشرين كيلو مترًا مربعًا ، أى أقلّ مِنْ خمسة أفدنة مصرية . وروسيا المستبدّة القاسيةُ، فى عُرْف أكثر الأوربيين ، وَضَعَتْ أخيرًا لولايتها البولونية والغربية قانوناً ، أشبه بقانون الصّين ، وزادت عليه أنّها مَنعَتْ سَماعَ دَعوى دَيْنٍ غيْرِ مُسَجلٍ على فلّاح . ولا تأذَنُ لفلّاحٍ أن يَسْتَدِينَ أكثرَ من نحو خمسمائة فرنك . وحكوماتُ الشرق إذا لَمْ تَسْتَدْرِكِ الأمرَ فتضع قانوناً من قبيلِ قانونِ روسيا تصبح الأراضى الزِّراعيةُ بعد خمسين عاماً أو قَرْن على الأكثر كإيرلانـــدة الإنكليزية المسكينة ، التى وجدت فى مدى ثلاثة قرون شخصاً واحداً حاول أنْ يَرْحَمَها فلم يُفلِح وأعنى به « غلادستون »[2] . على أنّ الشرق ربَّما لا يجد فى ثلاثين قرناً من يَلْتَمِسُ الرَّحْمَةَ لَهُ[3] .

---

(١) المسد : حبل من ليف أو من أى شىء كان ، وقيل الحبل المضفور المحكم الفتل .

(٢) W. Gladstone, ، هو وليم غلادستون ، السياسى الإنكليزى المشهور ، ولد فى ليفربول وجهد فى إصلاح إيرلندة (١٨٠٩ – ١٨٩٨) .

(٣) « طبائع الاستبداد » ، ص ٥٨ .

واجبات الحكومة

كان الكواكبى واسع الأفق بعيد المرامى فى الإصلاح الاجتماعى يتلفت إلى كل أمر من أمور الأمة وينظر إلى كل قضية من قضايا الشعب . وهو يرسم هنا واجبات الحكومة فى تربية الأمة ومعالجة النشء منذ ولادته حتى آخر أيامه ، من تهيئة قوانين الزواج وإيجاد القابلات والأطباء ، وملاجئ الأيتام والمسارح ، وبيوت العجزة ، وإقامة النصب ، وقد قام بنفسه بشيء من هذا الإصلاح حين كانت إليه أمور البلدية فى حلب ، وإليك بعض مقترحاته فى هذا السبيل :

الحكوماتُ المنتظمةُ هى التى تتولَّى ملاحظةَ تربيةِ الأمّة من حين تكون فى ظهورِ الآباء . وذلك بأن تسنَّ قوانينَ النكاح ، ثم تعتنى بوجودِ القابِلات والملقّحين والأطبّاء . ثم تفتحَ بيوتَ الأيتام اللقطاء ، ثم المكاتبَ والمدارسَ للتّعليمِ من الابتدائى الجبرىّ إلى أعلى المراتب : ثم تسهّل الاجتماعاتِ وتمهّد المراسح ، وتحمى المنتدياتِ ، وتجمع المكتباتِ والآثار ، وتُقيم النُّصُبَ المذكِّرات ، وتضع القوانينَ المحافظةَ على الآداب والحقوق ، وتسهر على حفظِ العادات القوميّة ، وإنماء الإحساساتِ المالية ، وتقوِّى الآمال ، وتيسّر الأعمال ، وتؤمّن العاجزين عن الكسبِ من الموت جوعاً إلى أن تقوم باحتفالاتِ جنائز ذوى الفضل على الأمّة . وهكذا الأمّة تحرصُ على أن يعيشَ ابنُها راضياً بنصيبه مِنْ حَياتِهِ ، لا يفتكر قطُّ كيف تكونُ بَعْدَه حالة صبيةٍ ضعافٍ يتركهم وراءه ، بل يموتُ مُطمَئِناً راضياً ، آخرُ دعائه : « فلْتَحْيَ الأمّة ! فلْتَحْيَ الأمّة[1] ! »

---

(١) « طبائع الاستبداد » ، ص ٨٧ .

حياة الفقير

يصف الكاتب المفكر حال الفقراء فى عصره فكأنه رسام بارع يتتبع عيشهم منذ الولادة حتى الوفاة وينتقد البيئة الاجتماعية وظلم الإنسانية لهذه الطبقة المسكينة فيقول :

وإذا افتكرنا كيف يَنْشَأُ الأسيرُ فى البيتِ الفقير ، وكيف يتربَّى نجد أنّه يلقح به ، وفى الغالب أبواه متنا كدانِ متشاكسانِ . ثم إذا تحرّك جنيناً حرّك شراسَةَ أمِّه فشتمته ، أو ازدادت آلامُ حياتِها فضربَتْه ، فإذا ما نما ضَيَّقَتْ عليه مَقَرَّه لألفتها الانحناءَ خمولاً أو التضرّر صغارًا ، أو التقلّص لضيقِ الفراش . ومتى ولدتهُ ضَغَطتْ عليه بالقماطِ اقتصادًا أو جهلاً ، فإذا بكى تألّماً سَدَّتْ فمه بثَدْيها أو نفسه بدوار السرّير ، أو سقته مخدّرًا عجزاً عن نفقةِ الطبيب ، فإذا ما فُطِم يأتيه الغذاءُ الفاسدُ يُضَيِّقُ معدَته ويفسد مزاجه . فإن كان طويلَ العمر وترعرعَ يُمْنَعُ من رياضةِ اللَّعِب لضيق البيت ، فإنْ سأل واستفهمَ ليتعلم يُزْجَر ويُلْكَم لضيق خُلْقِ أبويه . فإذا قويت رجلاه يُدْفَعُ به إلى خارجِ الباب إلى مدرسةِ الألفةِ على القذارة ، وتعلّم صِيغ الشّتم والسّباب . فَإنْ عاشَ ونَشَأ وُضِع فى مكتبٍ أو عند ذى صنعة ؛ ويكون أكبر القصدِ ربطه عن السّراح والمراح . فإذا بلغَ الشّبابَ رَبَطَهُ أولياؤُه على وَتِدِ الزّواج كى لا يبرحَ يقاسمُهم شقاءَ الحياة ، ويجنى على غيره كما جنى عليه أبواه . ثم هو يتولّى التّضييق على نفسه حتى بتثقيلِ الثِّياب المانعة حريّةَ حركة جسمه . ويتولّى المستبدُّون الضَّغْط والتَّضْييقَ على عقلِه ولسانِه وعملِه وأملِه . وهكذا يعيشُ الأسيرُ من حين يكون نَسْمةً فى ضِيقٍ وضغطٍ ، يُهَرْوِلُ ما بين وَداعِ سُقْم إلى أن يستقبله الموتُ مُضَيِّعاً دنياه مع آخرتِه ، فيموت غيرَ آسفٍ ولا مأسوفٍ عليه[1] .

---

(١) « طبائع الاستبداد » ، ص ٩٣ .

التربية الوطنية

يندد الكواكبى فى آثاره كلها ومقالاته بأخلاق معاصريه من المسلمين ، فيجد فيهم ضعفاً وتصاغراً وتذللا للأجانب ، وتهوله منهم هذه التربية المريضة ، التى تقلب الحقائق فتجعل الأخلاق المالية خزياً وعاراً ، وحب الوطنية تعصباً وضيقاً فى النظر ، لذلك أرسل على لسان الفراتى (وهو لقبه) هذا الحديث :

ومن أقبحِ آثارِ هذا الخوَرِ[1] نظرُهم الكمالَ فى الأجانب ، كما ينظرُ الصِّبيان الكمالَ فى آبائهم ومعلّميهم ، فيندفعونَ لتقليدِ الأجانب وأُتِّباعِهم فيما يظنُّونه رقّةً وظرافةً وتمدّناً ؛ وينخدعُون لهم فيما يَغُشُّونهم به كاستحسانِ تَرْكِ التصلّبِ فى الدِّين والافتخار به . فمنهم من يستحى من الصَّلاة فى غيرِ الخلوات . وكإهمال التمسُّك بالعاداتِ القوميَّة ؛ فمنهم من يستحى من عِمامته . وكالبعد عن الاعتزازِ بالعشيرة كأنَّ قومهم من سَقَط البشَر . وكنبْذِ التحزُّب للرأى كأنهم خُلِقُوا قاصرين . وكالغفلةِ عن إيثار الأَقْرَبين فى المنافِع وكالقعودِ عن التَّناصر والتَّراحُم بينهم كى لا يشمّ من ذلك رائحة التعصُّب الدِّينى ، وإن كان على الحق ، إلى نحو ذلك من الخِصَال الذَّميمة فى أهل الخوَر من المسلمين الحميدةِ فى الأجانِب ، يُمَوِّهُون عليهم بأنَّهم يُحسنون التحلّى بها دونَهم.

وهؤلاء الواهِنَة ، يحقّ لهم أن تَشُقَّ عليهم مفارقةُ حالاتٍ ألفوها عمرهم ، كما قد يألف الجسمُ السَّقَم فلا تلذّ له العافيةُ فإنّهم منذ نعومة أظفارهم تعلّموا الأدب مع الكبير ، يُقبّلون يده أو ذَيْلَهُ أو رِجْلَهُ ؛ وألفوا الاحترامَ ولا يَدوسون الكبيرَ ولو داس رقابَهم ، وألفوا الثبات ثباتَ الأوتادِ تحتَ المَطَارِق ، وألفوا الانقيادَ ولو إلى المهالك . وألفوا أن تكُون وظيفَتُهم فى الحياة

---

(١) خار الرجل خوراً : ضعف وفتر .

دون النبات ، ذاك يتطاول وهم يتقاصرون ؛ ذاكَ يطلب السَّماء وهم يطلبون الأرض ، كأنهم للموت مشتاقون . وهكذا طول الألفةِ على هذه الخصال قَلَبَ فى فكرهم الحقائقَ وجعل عندهم المخازىَ مفاخرَ : فصاروا يُسمُّون التَّصاغُرَ أدبًا ، والتذلُّلَ لطفًا ، والتملُّقَ فصاحةً ، واللكْنة رزانة ؛ وترك الحقوق سماحةً ، وقبولَ الإهانة تواضعاً ، والرِّضاء بالظلم طاعةً ، كما يُسمُّون دَعْوَى الاستحقاق غروراً ، والخروجَ عن الشَّأْنِ الذَّاتى فُضُولًا ، ومَدَّ النَّظَر إلى الغَدِ أَملاً ، والإقدامَ تَهوُّراً ، والحميَّةَ حماقةً ، والشَّهامةَ شَراسَةً ، وحريّة القول وقاحةً وحبّ الوطن جنوناً[1] .

المتعممون

هال الكواكبى ما كان يرى من المتعممين فى عصره من رياء ونفاق وجهل وإفساد فى الأمة الإسلامية ، فتناولهم بكثير من النقد ، ووصف ما كانوا عليه وصفاً بارعاً ثم عرض للدواء والإصلاح على عادته فقد كانوا الداء الدفين والعلة المزمنة ، فقال فى جرأة وصراحة :

وعندى أنَّ داءَنا الدَّفينَ دخولُ دِيننا تحت ولايةِ العلماء الرسميّين ؛ و بعبارةٍ أُخرى تحتَ ولاية الجُهَّال المتعمّمين .

فحينئذٍ أفاضَ « المولى الرومى » فى الكلام فقال : وهم المقرَّبُون مِنَ الأمراء على أنَّهم علماء وارتباط القضاء والإمضاء بهم . فإنَّ هؤلاء المتعمِّمين بعضٌ فى البلادِ الإسلامية كانوا اتّخذوا لأنفسهم قانوناً جعلُوا فيه من الأصولِ ما أَنْتج منذ قرنَيْن إلى الآن أن يصيرَ العلمُ منحةً رسميّةً تُعطَى للجهَّال حتى للأُمّيّين ، بل وللأطفال .

---

(١) « أم القرى » ، ص ٨٣ .

ويترقَّى صاحبُها فى مَراتبِ العلمِ والفضلِ والـكمالِ بمجرّد تقادُم السِّنين ، أو ترادف العنايات ، لا سيَّما إذا كان من زمرة الأصلاء . فإنه يكون طفلًا فى المَهْد ويُنْعَتُ رسمًا بأنه « أعلم العلماء المحقّقين » ثم يكون فطيماً فيُخَاطبُ بأنه : « أفضلُ الفضلاء المدقّقين » ثم يصيرُ مراهقاً فيُعْطَى لقب : « أقضى قضاةِ المسلمين ، مَعْدِن الفضل واليقين ، رافع أعلامِ الشّريعة والدِّين ، وارث علوم الأنبياء والمرسَلين » ثم وثم حتى يبلغ الوصف : « بأعْلَمِ العلماء المتبحّرين ، وأفضلِ الفضلاء المتورّعين ينبوع الفضْلِ واليقين » .

ولا يظنّ ظانٌّ أنّ هذا الإطراء[1] من الأمراء للمتعمّمين هو بقصْدِ أن يقابلوهم بالمِثْل بألقاب : « المولى ، المقدّس ، ذى القدرة ، صاحب العظمة والجلال ، المنزّه عن النظيرِ والمثال ، واهب الحياة ، ظلّ الله ، مهبط الإلهامات ، سلطان السلاطين ، مالك رقاب العالمين ، ولىّ نعمة الثَّقَلَيْن[2] ، ملجأ أهل الخافقَيْن » إلى غير ذلك من مَصَارِع الـكبرياء والمهالك .

هٰذا ولا ريب أنّ كثيراً من هؤلاءِ العلماءِ المتبحّرين لا يُحسنون قراءَة نعوتهم المزوّرة كما أنَّ بعض أولئك المتورّعين رافعى أعلام الشّريعة والدّين ، يُحار بون اللهَ جهاراً ، ويستحقّون ما يستحقّون من الله وملائكته والمؤمنين .

ويكفى حجّة عليهم بذلك تميّزهم جميعاً بلباسٍ عروسىّ مُزَرْكش ، بكثيرٍ من الفضّة والذّهَب ، مما هو حرامٌ فى الإسلام وقد اقتبسُوا هذا اللباس مِنْ كَهَنَةِ الرُّوم الذين يلبسُون القَباء[3] والقَلَنْسُوات[4] المذهَّبة عند إقامةِ شعائرِهم وفى

---

(١) الإطراء : المديح والثناء .

(٢) الثقلين : الإنس والجن .

(٣) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب .

(٤) القلنسوات والقلانس : جمع قلنسوة ، نوع من ملابس الرأس .

احتفالاتِهم الرسميّة . وكم من خطيبٍ يَستوى على المِنْبَر ويقول : اتقُوا الله ، وعلى رأسِه وصدْرِه ومنكِبَيْه هذا اللِّباس المُنْكَر .

ثم إنّ هؤلاء المتعمّمين ما كفاهم هذا القانونُ فألحَقُوه بقانونٍ آخرَ جعلوا فيه التّدريسَ والإرشادَ والوعْظَ والخطابةَ والإمامةَ وسائرَ الخدم الدِّينيَّة كالعُروض تُباع وتشترى وتُوهب وتُورث . وما ينحلُّ منها نادراً عن غيرِ وارث يبيعُها القضاةُ لمن يَزيدُ فى ثمنِها أو يتكرَّمون بها على المتملِّقين . وبهذا القانونِ انحصرت الخدمُ الدِّينيَّة فى الجُهَلاء والمنافِقين .

ثم لمّا شكلت بعضُ الحكومات مجالسَ إداريةً لم يَرْضَ المتعمّمون حتى جعلوا فيها قاضى المسلمين ، وكذلك مفتى المؤمنين ، فهما فى كلّ بلدٍ عضوانِ فى مجالسِ الإدارة يحكمان بأشياءَ كثيرةٍ ممّا يصدم الشّرع كالربا والضّريبة على الخمور والرُّسوم العرفية ، وغيرها مما كان الأَليقُ والأَنْسَبُ بالإسلامية أن يبقى العلماء بعيدين عنه ، كما أنّ القسّيس بل الشمَّاس لا يحضر مجلساً يُعْقَدُ فيه زواجٌ أو تفريقٌ مدنيّان ولا يشهد فى صكّ دَيْن داخله ربا ، فضلاً عن أن يقضى أو يمضى بصفةٍ رسمية كهنوتية أمثال ذلك من الأعمال التى تصادم دين النّصرانية[1] .

---

(١) «أم القرى» ، ص ٢١ .

البدع

ويتناول المؤلف حال الدين أو التدين عند المسلمين ، وقد فشا فيهم الزيغ والضلال وسادت البدع وقلدوا المشركين ، فتحولت العبادة إلى تقاليد وعادات ما كان المسلمون فى صدر أيامهم يعرفونها أو يقبلون بها ، فالكواكبى سلفى يسير وفاق الكتاب والسنة ، ولا يرضى بالخزعبلات والترهات فهى مرض تجب مداواته وعلة يجب اقتلاعها فيقول :

فلينظرِ الآنَ هل فَشا فى الإسلام شىءٌ من هذه الأعمالِ وأشباهِها فى الصورة أو الحكم ؟ ومن لا تأخذه فى الله لومةُ لائم لا يَرى بُدًّا من التَّصريح بأن حالةَ السَّوادِ الأعظم من أهل القبلة فى غيرِ جزيرةِ العرب تُشبه حالةَ المشركين من كل الوجوه ؛ وأنَّ الدِّين عندهم عادَ غريباً كما بدأ كشأن غيرهم من الأمم . فمنهم الذين استبدلُوا بالأصنامِ القبور ، فبنَوْا عليها المساجدَ والمشاهدَ وأسرجُوا لها السرجَ ، وأرخوا عليها الستورَ يَطُوفون حولها مقبلين مستلمين[1] أركانها ، ويهتِفُون بأسماء سكّانِها فى الشَّدائد ، ويذبحونَ عندها القرابين يهلُّ بها عمداً لغير الله ، وينذرون لها النُّذور ، ويشدُّون للحجّ إليها الرِّحال ، ويعلّقون بسكّانِها الآمال ، يستنزلون الرَّحمةَ بذكرهم وعند قبورِهم ويرجونهم بإلحاحٍ وخُضوع ومراقبةٍ وخُشوعٍ أن يتوسَّطوا لهم فى قضاء الحاجات وقَبُول الدَّعوات. وكلّ ذلك من الحبّ والتَّعظيم لغيرِ الله ، والخوف والرَّجاء من سواه .

ومنهم من استعاضُوا عن ألواحِ التَّماثيل عند النَّصارى والمشركين بألواحٍ فيها أسماء معظّميهم مصدّرةً بالنِّداء تبركاً وذكراً ودعاء ، يعلّقونها على الجدْران فى بيوتهم بل فى مساجدهم أيضاً[2] . ويتوجّون بها الأعلام من نحو : « يا علىّ

---

(١) استلم الحجر : لمسه باليد ، قبله .

(٢) كجوامع القسطنطينية وبلاد الترك ومثل بلاد الترك أكثر بلاد المسلمين . كذا فى هامش الأصل .

يا شاذلىّ ، يا دسوقى ، يا رفاعى ، يا بهاء الدين النقشى ، يا جلال الدين الرومى ، يا بكتاش ولى » .

ومنهم ناسٌ يجتمعونَ لأجلِ العِبادةِ بذكر الله ذكراً مَشُوباً بإنشادِ المدائح لِغُلاة شعراء المتأخّرين ، التى أهْوَن ما فيها الإطراء الذى نهانا عنه النبىّ — عليه الصَّلاة والسلام — حتى لنفسه الشّريفة فقال : « لا تُطْرونى كما أَطْرَت اليهودُ والنَّصَارى أنبياءهم[1] » و بإنشادهم مقاماتٍ شيوخية تغالَوْا فيها فى الاستغاثهِ بشيوخهم[2] .

٤ ـ الكواكبى الأديب والعالم

القرآن والاختراع

أخذ الكواكبى بثقافة القرآن ، فتعلمه ودرسه ، ونظر فيه نظرة العالم المتعمق الدقيق ، ورأى أن آياته تدعو إلى الإبداع والابتكار ومتابعة الاختراع ، وأنه يدفع إلى المراقبة والعمل والرجوع إلى العلوم الحديثة ، وفحص ما فى الكون ليكون المسلم على اتصال بالطبيعة وآياتها ومعجزاتها فراح يسرد علينا ألواناً من إعجاز القرآن فى آياته التى تدل على مشاركة فى علوم الدنيا ومسابقة للغربيين فى نظرياتهم ، فهو كتاب دين وسفر تدقيق ومطالعة . وقد دلل الكواكبى بذلك على سعة أفقه وعظيم إلمامه بالعلم وعمق فهمه للقرآن ، وقد راجت لعصره نظرية جديدة هى أن القرآن فيه كل شىء ، وقد احتوى كل علم ، فقال يدلى برأيه فى الموضوع :

لو أُطلِقَ للعلماء عِنانُ التَّدْقيق وحرّيةُ الرأى والتّأليف ، كما أُطلقَ لأهلِ التأويل والخُرافات لرأوا فى ألوفٍ من آياتِ القرآن ألوفَ آياتٍ من الإعجاز . لرأوا فيه كُلّ يومٍ آيةً تتجدَّدُ مع الزّمان والحدثان ، تُبرهن إعجازَهُ بصدقِ قوله : ﴿ وَلا رَطْبٍ وَلاَ يابِسٍ إلاَّ فى كِتابٍ مبين[3] ﴾ برهان عيان لا مجرّد تسليم و إيمان .

---

(١) لفظ الحديث : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله » .

(٢) « أم القرى » ، ص ٣٩ .

(٣) القرآن الكريم ، سورة الأنعام ٦/ ٥٩ .

ومثالُ ذلك أنَّ العلمَ كشفَ فى هذه القرون الأخيرةِ حقائقَ وطبائعَ كثيرةً ، تُعزَى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوربّا وأمريكا . والمدقّقُ فى القرآنِ يجدُ أكثرَها وردَ التّصريحُ أو التّلميحُ به فى القرآن ، منذ ثلاثةَ عشرَ قرناً . وما بقيت مستورةً تحت غِشاء من الخَفاء إلّا لتكونَ عند ظُهورها معجزةً للقرآن شاهدةً بأنّه كلامُ ربٍّ لا يعلمُ الغيبَ سواه . وذلك أنهم قد كشفوا أن مَادّةَ الكون هى الأثير . وقد وصف القرآنُ بَدْءَ التكوين فقال : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَى إلى السَّماء وَهِيَ دُخَانٌ(١)﴾ .

وكَشفوا أنَّ الكائناتِ فى حركةٍ دائبةٍ ؛ والقرآنُ يقول : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا(٢)﴾ إلى أنْ يقول : ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُون(٣)﴾ .

وَحَقَّقوا أنَّ الأرض منفتقةٌ فى النظام الشمسى ؛ والقرآنُ يقول : ﴿أَنَّ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا(٤)﴾ .

وحَقَّقُوا أنَّ القَمَرَ مُنْشَقٌّ من الأرض ؛ والقرآنُ يقول ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِن أَطْرَافِهَا(٥)﴾ ، ويقول : ﴿ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وٱنْشَقَّ القَمَرُ(٦)﴾ .

---

(١) القرآن الكريم ، سورة فصلت ٤١/١١ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة يس ٣٦/٣٣ .

(٣) القرآن الكريم ، سورة يس ٣٦/٤٠ .

(٤) القرآن الكريم ، سورة الأنبياء ٢١/٣٠ .

(٥) القرآن الكريم ، سورة الأنبياء ٢١/٤٤ .

(٦) القرآن الكريم ، سورة القمر ٥٤/١ .

وَحَقَّقُوا أنَّ طبقاتِ الأرض سَبْعٌ ؛ والقرآن يقول ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ[1] ﴾ .

وَحَقَّقُوا أنه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعى أن تميد الأرض ، أى ترتج فى دورتها ؛ والقرآن يقول : ﴿ وألْقَى فى الأرْضِ رَوَاسِيَ أن تَمِيدَ بكم[2] ﴾ .

وكشفوا أنَّ التغييرَ فى التركيب الكيماوى بل والمعنوى ناشئ عن تخالف نسبة المقادير ؛ والقرآن يقول : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بمقدار[3] ﴾ .

وكشفوا أنَّ للجمادات حياةً قائمةً بماء التبلور ؛ والقرآنُ يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حيّ[4] ﴾ .

وحققوا أن العالم العضوى ومنه الإنسان تَرَقَّى من الجماد . والقرآن يقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ[5] ﴾ .

وكشفوا ناموسَ اللقاح العام فى النبات ؛ والقرآنُ يقول : ﴿ خَلَقَ الأزواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأرْضُ[6] ﴾ ويقول : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بهِ أزواجاً مِنْ نَبَاتٍ شتّى[7] ﴾ . ويقول : ﴿ اهتَزَّتْ وَرَبَتْ وأنبتَتْ من كُلِّ زَوْجٍ بهيج[8] ﴾

(١) فى الأصل : « خلق سبع سموات طباقاً ومن الأرض مثلهن » — وصحيح الآية ، فى القرآن الكريم سورة نوح ١٥/٧١ (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) — ولعله يريد أن يروى الآية التالية ، سورة الطلاق ١٢/٦٥ : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن » . وهذا خطأ بلا شك من الطابع .

(٢) القرآن الكريم ، سورة النحل ١٥/١٦ .

(٣) القرآن الكريم ، سورة الرعد ٩/١٣ .

(٤) القرآن الكريم ، سورة الأنبياء ٣٠/٢١ .

(٥) القرآن الكريم ، سورة المؤمنون ١٢/٢٣ .

(٦) القرآن الكريم ، سورة يس ٣٦/٣٦ .

(٧) القرآن الكريم ، سورة طه ٥٣/٢٠ .

(٨) القرآن الكريم ، سورة الحج ٥/٢٢ .

ويقول : ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ[1] ﴾ .

وكشفوا طريقة إمساك الظل ، أى التصوير الشمسى ؛ والقرآن يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا[2] ﴾ .

وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء ؛ والقرآن يقول ، بعد ذكره الدواب والجوارى بالريح : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ[3] مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ[4] ﴾ .

الاستبداد والقرآن

كان الكواكبى يرجع إلى القرآن والسنة والتاريخ الإسلامى كلما أراد أن يدعم رأيه ويثبت حجته ، فالقرآن عربى مبين ، يدعو إلى الحرية والشورى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والرسل قامت بتعاليم الأديان السماوية فى النصح والإصلاح ، لذلك رجع إليه واستشهد به فبرهن على واسع معرفته وعظيم فهمه وعميق ذكائه ، واتخذ الآيات سبيلا إلى القلوب والعقول فساق الآيات التى تدل على أساليب الحكم العاقلة والديمقراطية الصحيحة فقال :

وهذا القرآنُ الكريمُ مشحونٌ بتعاليم إماتة الاستبداد وإحياء العدل والتساوى، حتى فى القصص منه . ومن جملتها قولُ بلقيس ملكة سبأ من عرب تُبَّع[5] ، تخاطبُ أشرافَ قومها : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ . قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ، والأمر

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الرعد ١٣/٣ .
(٢) القرآن الكريم ، سورة الفرقان ٢٥/٤٥ .
(٣) القرآن الكريم ، سورة يس ٣٦/٤٢ .
(٤) «طبائع الاستبداد» ، ص ٢٥ .
(٥) التبع والتبابعة : لقب ملوك اليمن .

إليكِ فانظري ماذا تَأمُرِين . قالت : إنَّ الملوكَ إذَا دَخلُوا قريةً أفسدوها وَجَعلُوا أعِزَّةَ أهْلِها أذِلَّةً ، وكذلك يَفعلُون[١] ﴾ .

فهذه القصّةُ تعلّم كيف ينبغى أن يَستشير الملوكُ الملأَ ، أى أشرافَ الرعية وأن لا يقطعوا أمراً إلّا برأيهم ، وأن تحْفظَ القوّة والبأس فى يد الرعيَّة ، وأن يُخَصَّصَ الملوكُ بالتَّنفيذ ، ويُكْرَمُوا بنسبة الأمر إليهم ، وتعلن شأن الملوك المستبدّين واستحقاقهم للمؤاخذة والتَّقْبيح .

ومن هذا البابِ أيضاً ما ورد فى قصّةِ موسى عليه السّلام مع فِرْعون فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْن إنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أرْضِكُم فماذا تأمرون[٢] ﴾ أى قال الأشراف بعضهم لبعض ماذا رأيكم . قالوا خطاباً لفرعون وهو قرارهم : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وأَرْسِلْ فِى المَدَائِن حَاشِرين يَأتُوكَ بكُلِّ سَاحِرٍ عليم[٣] ﴾ ثم وصف مذاكرتهم بقوله تعالى : ﴿ فَتَنَازَعُوا أمرَهم[٤] ﴾ — أىْ رأيَهم — ﴿ بَيْنَهُمْ وأسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ أى أفضَت مذاكرتُهم العلنيَّة إلى النّزاع فَأَجْرَوْا مذاكرةً سريَّةً طبق ما يجرى إلى الآن فى مجالسِ الشُّورى العمومية .

بناءً عليه ، لامجالَ لرمْىِ الإسلامية بالاستبداد بعد أمثال هذه الآيات البيِّنات المفسِّرات للمرادِ من قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُم فِى الأمْرِ[٥] ﴾ أى شأنهم . وقوله تعالى : ﴿ وَأمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهم[٦] ﴾ أى فِى الشأن . وقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّها

---

(١) القرآن الكريم ، سورة النمل ٢٧/٣١ — ٣٤ .
(٢) القرآن الكريم ، سورة الأعراف ٧/١٠٩ — ١١٠ .
(٣) القرآن الكريم ، سورة الأعراف ٧/١١١ — ١١٢ .
(٤) القرآن الكريم ، سورة طه ٢٠/٦٢ .
(٥) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ٣/١٥٩ .
(٦) القرآن الكريم ، سورة الشورى ٤٢/٣٨ .

أطيعوا اللهَ وأَطِيعُوا الرسولَ وأُولى الأَمْرِ مِنْكُم ﴾[1] أى أصحاب الحكم ، وهم العلماء والرؤساء على ما اتفق عليه أكثرُ المفسِّرين .

ويؤيّد هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ[2] ﴾ أى ما شأنه، وحديث « أَمِيرِى مِنَ المَلَائِكة جِبْرِيل[3] » أى مشاورى[4] .

تحية شعرية

صاغ الكواكبى كتاباته بأسلوب من النثر بديع ، قلد فيه الترسل الحر والكتابة الجميلة ، ولكنه شاء أن يشارك فى الشعر كما شارك العلماء قبله وفى عصره ، فأدلى بدلوه فيه ، وخرج منه كما خرج العلماء بنظم لا يرتفع إلى مستوى نثره ، ولكننا أردنا أن نروى هنا من هذا النظم لنعرض جوانب أدبه وتفكيره كلها فلا نخفى منها شيئاً ، ليكون عرضنا صحيحاً ، والأديب الناقد يرى فى هذا النظم نقصاً مرده إلى تصحيف المطبعة أو ضعف الناظم ، فلعله من شعره الذى تحدث عنه ابنه — كما ذكرنا — لأنه لم ينسبه إلى نفسه ، قال :

فقال « الأستاذ الرئيس » : وعليه السلام ، وأمر بقراءة القصيدة فقُرِئَتْ وأثبت منها بإشارة الأستاذ الرئيس بعضُ أبيات وهى :

غَيَّرتمو يا حيَارى ما بأَنْفُسِكُمْ	فَغَيَّرَ اللهُ عَنْكُمْ سَابِغَ النِّعَمِ
اللهُ لا يهلك القرى إذا كَفَرَتْ	وأهلُها مصلحون فى شئونهم[5]
تَرْكُ التَّآمُرِ بالمعروف أورثكُمْ	مَا حَاقَ مِنْ نُذُرٍ يَا زَلَّةَ القَدَمِ

---

(١) القرآن الكريم ، سورة النساء ٤/٥٩ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة هود ١١/٩٧ : « وما أمر فرعون برشيد » .

(٣) جاء الحديث فى كتاب « النهاية فى غريب الحديث والأثر » ، ط . مصر ١٣١٨ ، ١/٥١ : أميرى من الملائكة جبريل ، أى صاحب أمرى وولىي وكل من فزعت إلى مشاورته ومؤامرته فهو أميرك .

(٤) « طبائع الاستبداد » ، ص ١٨ .

(٥) يبدو هذا البيت مختلا لا يستقيم به وزن ذلك أنه استعمل فى الشطرين « متفعلن » بدل « مستفعلن » الثانية وهو نادر .

* * *

يا قومنا صححوا توحيد بارئكم بدون إشراك أحياء ولا رمم

ونقحوا الشرع من حشو ومخترع رجعى إلى دين أسلاف ذوى ذمم

خذوا بمحكم آيات منزلة وسنة بينت فى الفعل والكلم

دعوا البدائع فى الدين وإن حسنت ولا يغرنكم تأويل محتكم (١)

سماحة الدين فى فكر وفى عمل خير من الإصر والأغلال والسقم

سماحة الدين من الله خالقكم بها عليكم دعوا الكفران بالنعم

وحافظوا ملة بيضاء ساطعة وسمحة قد حبتكم كل مغتنم

راقت فضائلها فى كل فلسفة قوامها حكمة تفضى إلى شمم (٢)

* * *

(١) فى هذا البيت أيضاً استعمل « مفتعلن » بدل « مستفعلن » الثانية فى الشطر الأول وهو كذلك نادر جداً فى بحر البسيط .

(٢) « أم القرى » ، ص ٩٧ ، وقد روى القصيدة على لسان الأديب البيروتى الذى لم يمكنه القدر من موافاة الجمعية ، فأرسل يقرئ الأعضاء سلامه ومعه هذه الأبيات يخاطب بها المسلمين .

المراجع

عبد الرحمن الكواكبي : سجل مذاكرات جمعية أم القرى ، أو مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد فى مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ ، لجامعه السيد الفراتى كاتب الجمعية . ونُشر فى المجلد الخامس من مجلة « المنار » الإسلامية بمصر سنة ١٣٢٠ هـ .

وطُبع مراراً ، ومنها بعنوان : « أم القرى أى ضبط مفاوضات ومقرّرات مؤتمر النهضة الإسلامية فى مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ ، تأليف فقيد العلم والوطن المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبى ، مزيّن برسم الفقيد وتاريخ حياته ، طُبع على نفقة إبرهيم فارس صاحب المكتبة الشرقية فى مصر مطبعة التقدم ، بغير تاريخ ، فى ١٨٥ صفحة » .

« طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » ، وهى كلمات حق وصيحة فى واد . إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد. محررها هو الرحالة ك . طُبع بالمكتبة التجارية بمصر ١٩٣١ ، فى ١٣٦ صفحة .

وَطُبع مراراً كذلك مُصَدّراً باسمه : عبد الرحمن الكواكبى الملقّب بالسّيد الفراتى ، وعليه رسمه ، وأشعار قيلت فى مدحه .

محمد رشيد رضا : « طبائع الاستبداد » ، فى باب الهدايا والتقاريظ ، مجلة « المنار » ١٩٠١ ، ٤ / ١٠٥ — ١٠٦ .

« أم القرى » ، فى باب التقاريظ ، مجلة « المنار » ١٩٠٢ ، ٤ / ٩٥٩ — ٩٦٠ .

	: مصاب عظيم بوفاة عالم حكيم ، مجلّة « المنار » ، يوم السبت ٧ يونيو ١٩٠٢ ، ٥ / ٢٣٧ — ٢٨٠.
جرجى زيدان	: السيّد عبد الرحمن الكواكبى ، مجلة « الهلال » ، ١٥ يوليو ١٩٠٢ ، ١٠ / ٥٩٤ — ٥٩٦ .
	: السيّد عبد الرحمن الكواكبى (المقال السابق نفسه) فى كتاب « مشاهير الشرق » ، ١٩٠٣ ، ١/ ٣٥٠
	: « تاريخ آداب اللغة العربية » ، مصر ١٩٣٧ ، ٤ / ٢٧٠ .
محمد كرد على[1]	: السيّد عبد الرحمن الكواكبى ، مجلة « المقتطف » ، أول يوليو ١٩٠٢ ، ٢٧ / ٦٢٢ — ٦٢٤ .
	: « المذكرات » ، دمشق ١٩٤٨ ، ٢ / ٦١٠ — ٦١٢ .
فيليب دى طرازى	: « تاريخ الصحافة العربية » : جرائد حلب ، بيروت ١٩١٣، ٢ / ٢٠٠ — ٢٠٢ ، ٢ / ٢٢١ — ٢٢٣ .
لويس شيخو	: عبد الرحمن الكواكبى ، مقالات فى مجلة « المشرق » ، ببيروت ١٩٢٥ ، ٢٣ / ٣٨٣ . ثم فى كتاب « تاريخ الآداب العربية » فى الربع الأول من القرن العشرين ، بيروت ١٩٢٦ ، ص١٨.
محمد راغب الطباخ	: « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » . حلب ١٩٢٦ ، ٧ / ٥٠٧ — ٥٢٤ .
	: مجلة « المجمع العلمى العربى » بدمشق ، سنة ١٩٣٠ ، ١٠ / ٤٤ (عن السيد مسعود الكواكبى شقيق السيد عبد الرحمن) .
كامل الغزى	: عبد الرحمن الكواكبى (تاريخ ما أهمله التاريخ

---

(١) أنبأنا المرحوم الرئيس محمد كرد على بأنه هو كاتب هذا المقال رحمه الله .

من سيرته) مجلة « الحديث » ، حلب ١٩٢٩ ، ٣ / ٤٠٥ — ٤٥٠ .

: « نهر الذهب فى تاريخ حلب » ، حلب ١٩٢٦ ، الجزء الثالث (الأحداث فى حلب على عهد العثمانيين) .

يوسف إليان سركيس : « معجم المطبوعات العربية والمعرّبة » ، مصر ١٩٢٨ ، السيد عبد الرحمن الكواكبى ، بالعمود ١٥٧٤ — ١٥٧٦ .

محمد لطفى جمعة : ثلاثة رجال : الأفغانى ، والكواكبى ، والثعالبى ؛ مجلة « الحديث » حلب ١٩٣٧ ، ١١ / ٦٥٠ .

إبرهيم سليم النجار : عبد الرحمن الكواكبى (من ذكريات الماضى) ، مجلة « الحديث » ، حلب ١٩٤٠ ، ١٤ / ٣ — ٧ .

: عبد الرحمن الكواكبى ، مجلة « الحديث » ، حلب ١٩٥١ ، ٢٥ / ١١٦ — ١٢١ .

خير الدين الزركلى : « الأعلام » ، قاموس تراجم ، عبد الرحمن بن أحمد الكواكبى ، مصر ١٩٢٧ ، ٢ / ٤٨٧ .

برهان الدين الداغستانى : عبدالرحمن الكواكبى، مجلة «الثقافة» ، بمصر ٥ / ٣١٠ .

أحمد أمين : السيد عبد الرحمن الكواكبى ، « فيض الخاطر » ، مصر ١٩٤٥ ، ٦ / ١٧٩ — ٢٠٢ .

ثم فى كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » ، مصر ١٩٤٨ ، ٢٥٤ — ٢٨٤ .

عبد الله كنون : السيد عبدالرحمن الكواكبى ، فى كتابه «التعاشيب» تطوان ، بغير تاريخ ، ١٣٦ — ١٤٧ .

سامى الكيالى : عبد الرحمن الكواكبى ، مجلة « الكتاب » ، مصر يناير ١٩٤٧ ، ٤٣٧ وما بعدها .

: ذكرى الكواكبى ، بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاته ، مجلة « الحديث » ، حلب ، أيلول ١٩٥٢ ٥٣٧ — ٥٤١ .

محمد أسعد الكواكبى : عبد الرحمن الكواكبى ، بقلم ولده الدكتور محمد أسعد الكواكبى ، إستانبول ١٩٥٢ ، مجلة «الحديث» حلب ١٩٥٢ ، ٢٦ / ٥٤٢ — ٥٥٤ .
صفحات لم تنشر من كتاب « طبائع الاستبداد » مجلة « الحديث » حلب ١٩٥٢ ، ٢٦/٥٥٥—٥٥٨ .

محمد جميل بيهم : عهد الكواكبى فى العالم العربى ، مجلة « الحديث » حلب ١٩٥٢ ، ٢٦ / ٥٥٩ — ٥٦٣ .

عبد الرحمن الكيالى : المبادئ الخالدة فى كتابى « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » ، مجلة « الحديث » ، حلب ١٩٥٢ ، ٢٦ / ٥٦٤ — ٥٧٨ .

أنيس الخورى المقدسى : « الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث » ، بيروت ١٩٥٢ فى جزءين . ✓

مارون عبود : « رواد النهضة الحديثة » ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٢ ، ص ٢٠١ — ٢٠٦ . ✓

محمد أحمد خلف الله : « الكواكبى ، حياته وآراؤه » ، مكتبة العرب بمصر ، بغير تاريخ فى ١٣٩ صفحة من القطع الصغير . ✓

كارل بروكلمن : « تاريخ الأدب العربى » بالألمانية ، ترجمة قصيرة ومصادر ، ليدن ١٩٤٢ ، الذيل ٣ / ٣٨٠ .

أغناطيوس كرتشكوفسكى : رأى فى طبائع الاستبداد ، بمجلة « المستشرقين » (M.S.O.S.) ٣١ / ١٨٦ .

يوسف أسعد داغر : « مصادر الدراسة الأدبية » ، بيروت ١٩٥٥ ، ٢ / ٦٧٢ — ٦٧٥ ، وفيه تفصيل المصادر التى كتبت عن الكواكبى .

(وهناك صحف كتبت عنه فى مصر إثر وفاته ، منها : اللواء ، والمؤيد ، والقاهرة ، والرقيب ، والأهرام ، لم نقع عليها آسفين) .

فهرست

الفصل الأول

عصر عبد الرحمن الكواكبى

الفصل الثانى

عبد الرحمن الكواكبى فى عصره

الفصل الثالث

جوانب عبد الرحمن الكواكبى

الفصل الرابع
منتخبات من آثار عبد الرحمن الكواكبي

صفحة